

الترجمة العربية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد: 79 - محرم - 1421هـ - نيسان - ابريل - 2000
السنة العشرون



ط-ع

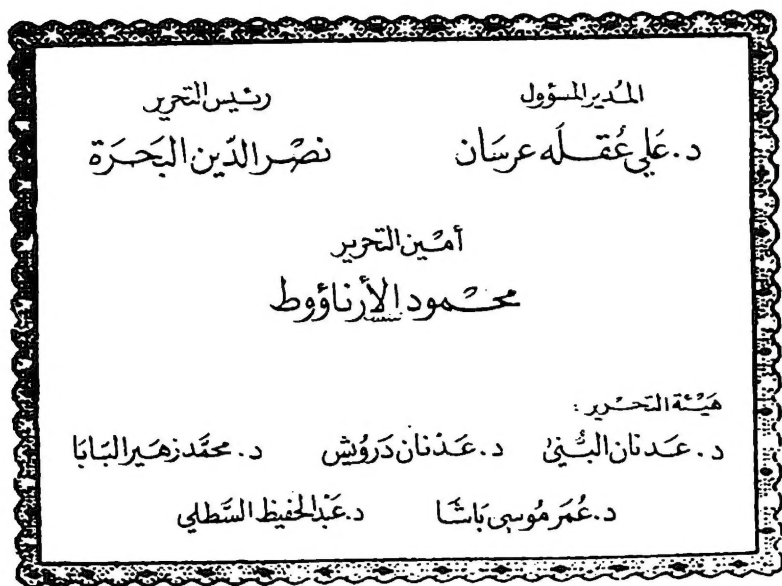
في هذا العدد

- الأضداد في اللغة العربية
- ملزمة من كتاب قديم وقصتها
- ابن الأثير الجزري وكتابه المثل السائر
- من تاريخ الطب عند العرب
- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز
- ابن كثير وكتابه التفسير

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد: 79 - محرّم - 1421هـ - نيسان - أبريل - 2000 - السنة العشرون



□ ترسل النواة والرسائل إلى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب - مجلة التراث العربي - دمشق - من.ب. : ٢٢٣٠
هاتف: ٦١١٧٢٤٠ - ٦١١٧٢٤١ - ٦١١٧٢٤٢ - ٦١١٧٢٤٣ - ٦١١٧٢٤٤ - فاكس: ٦١١٧٢٤٤



ترسل المواد والمراسلات إلى العنوان التالي :
 المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث العربي، دمشق - ص ب ٣٢٣٠٠، هاتف ٦١١٧٢٤٠ - ٦١١٧٢٤١ -
 ٦١١٧٢٤٤ - فاكس ٦١١٧٢٤٣ - ٦١١٧٢٤٢

البريد الإلكتروني : Email: unecriv@net.sy
 الانترنت : Internet: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الانترنت :
 www.awu-dam.com



اتحاد الكتاب العرب

ARAB WRITERS UNION

DAMASCUS دمشق

مكتبة لسان العرب

شروط النشر

- 1- أن تكون البحوث تراثية، أو تصب في باب التراث.
- 2- أن تكون جديدة، ولم تنشر من قبل.
- 3- التقيّد بمنهج علمي دقيق، والتزام الموضوعية، والتوثيق والتفريغ، وتحقيق السلامة اللغوية.
- 4- أن تكتب بخط واضح، ويفضل أن تكون مطبوعة، وعلى وجه واحد من الورقة.
- 5- ألا تزيد عن ثلاثين صفحة.
- 6- أن تراعى علامات الترقيم.
- 7- توضع الحواشي في أسفل الصفحة، ويلتزم فيها المنهج العربي، أي يكتب اسم الكتاب، فالمؤلف، فالمحقق، فالجزء والصفحة.
- 8- يثبت في آخر البحث فهرس المصادر والمراجع وفق ترتيب حروف الهجاء لأسماء الكتب، مثال: (طبقات فحول الشعراء: ابن سلام - تح. محمود شاكر - القاهرة - مط. المدني - ط3، 1974م).
- 9- يقدم للبحث ملخص عنه في بضعة أسطر، ويرفق لمحة عن سيرة المؤلف وعنوانه.
- 10- يمكن أن تنشر المجلة نصوصاً تراثية محققة، إذا استوفى النص شروط التحقيق.
- 11- تخضع الأبحاث المرسلة للتحكيم العلمي.
- 12- لا تعاد الأبحاث إلى أصحابها، ويبلغون بقبول نشرها، أو الاعتذار لهم.
- 13- الأبحاث والمقالات التي تنشر تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو الاتحاد.
- 14- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب.



الاشتراك السنوي

لأفراد	١٥٠ ل.س	داخل القطر
٣٠٠ ل.س أو (١٥) دولار أميركي	"	في الأقطار العربية
٤٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أميركي	"	خارج الوطن العربي
٣٠٠ ل.س		الدوائر الرسمية داخل القطر
٥٠٠ ل.س أو (٢٥) دولار أميركي		الدوائر الرسمية في الوطن العربي
٦٥٠ ل.س أو (٤٠) دولار أميركي		الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي
٧٥ ل.س		أعضاء اتحاد الكتاب

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً بدفع نقداً إلى (خاسب مجلة التراث العربي) ■

المدقق اللغوي : ممدوح فاخوري

المحتوى :

ص

- الأضداد في اللغة العربية.....
- 7 نصر الدين البهرة
- التعدين أساس علم الكيمياء.....
- 23 د. محمد زهير البابا
- ملزمة من كتاب قديم، وقصتها.....
- 50 د. عبد السلام العجيلي
- مع الدكتور شوقي ضيف في مقدمة الرد على النحاة.....
- 63 د. جميل علوش
- ابن الأثير الجزري وكتابه المثل السائر.....
- 70 د. سمر روجي الفيصل
- التشبيه الدائري في الشعر الأموي.....
- 77 د. اسماعيل أحمد العالم
- تحليل نص من رسالة التوايع والزوايع.....
- 95 نادر حقاني
- من تاريخ الطب عند العرب.....
- 111 د. شاكر مطلق
- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز.....
- 119 د. مصطفى محمد العبدالله
- رأي في المسألة التراثية.....
- 123 د. محمد أحمد النابلسي
- الحفاية بتوضيح الكفاية للبيقوشى.....
- د. محسن اسماعيل محددو
- 132 طه صالح أمين آغا
- ابن كثير وكتابه التفسير.....
- 150 محمود الأرناؤوط





مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

رابطہ بدیل lisanarb.com

الأضداد.. في اللغة العربية

نصر الدين البحرة

إذا رأينا أن وضع كتب الأضداد، يدخل في مجال التأليف المعجمي، فإنه اقترن تاريخياً بولادة هذا النوع من الكتابة. وقد "ولدت معجمتنا اللغوية صغيرة متفرقة غير منظمة، ثم نمت شيئاً فشيئاً، وتوسعت وتكاملت جيلاً بعد جيل" (1)

وعلى الرغم من أن الصينيين واليونان قد سبقوا العرب في وضع المعاجم بوضع منات السنين، إلا أن العرب سبقوا أوروبا في هذا المضمار بأكثر من تسعة قرون ذلك أن تأليف أول معجم عربي يعود إلى القرن الثامن الميلادي، في حين يرجع تأليف أول معجم أوروبي إلى القرن السابع عشر، وهو معجم انكليزي (2).

ولقد جمعت ألفاظ اللغة العربية ودونت ورتبت خلال ثلاث مراحل تاريخية، بدأت الأولى منها أواخر القرن الهجري الأول واستغرقت زهاء مئة سنة حتى أواخر القرن الثاني للهجرة. وفي هذه المرحلة جمعت الأحاديث للشريفة والقصائد الشعرية وبعض الأعمال النثرية. وكان علماء اللغة يأخذون الألفاظ العربية من أفواه عرب الصحراء، أو الوافدين على الأمصار، ممن لم تتأثر ألسنتهم بمخالطة الأعاجم. (3)

في المرحلة الأولى جمعت المفردات والألفاظ كلفياً دون ترتيب أو تنظيم "لأن الغاية كانت تتجه أولاً إلى الجمع والتدوين دون غيره، خوفاً على العربية من الغريب الدخيل" (4) وعرفت المرحلة الثانية قدراً أكبر من التنظيم، كجمع الألفاظ التي تشترك في حرف واحد أو التي ترتبط برابطة الأضداد. وفي المرحلة الثالثة وضعت المعجمات الشاملة المنظمة، واعتمد مؤلفوها على ما كتب في المرحلتين السابقتين، فجمعوا وأضافوا ورتبوا ونسقوا.

وفي هذه الأثناء ظهرت كتب الأضداد وهي "التي جمعت ألفاظاً تأخذ معنيين متضادين، بحيث يمكن استخدام كل لفظة منها لمعنيين متافرين، إذ أن كل لفظة تعني الشيء وضده" (5)

وبين الذين وضعوا معجمات الأضداد: الأصمعي، والسجستاني، وابن السكيت وقطرب، وأبو الطيب اللغوي، وابن الدهان، والصغاني، وابن الأنباري. وقد قام المستشرق أوغست هفتر بتحقيق كتب الأضداد التالية:

ويرد ابن الأنباري على هذا الاعتراض الذي تضمن وجهة نظره في قائله، وهو لا بد أن يكون من الشعوبيين (19) "أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب" فيقول:

"أجيبوا عن هذا الذي ظنوه وسألوا عنه، بضروب من الأجوبة، أحدهن أن كلام العرب يصح بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفانه واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد فمن ذلك قول الشاعر:

كل شيء ما خلا الموت جَلَلٌ والفَتَى يسعى، ويلهيه الأملُ

فدل ما تقدم قبل "جل" وتأخر بعده على أن معناه: "كل شيء ما خلا الموت يسير" ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن الجلال هنا معناه عظيم. ويقدم ابن الأنباري مثالا آخر:

فلئن عفوت لأَعْفُونَ جِلْدُ ولئن سطوت لأَوْهِنُنْ عِظْمِي

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أَمِيمَ أَخِي فإِذَا رَمَيْتِ، يصيْنِي سَهْمِي

ثم يتابع شارحاً: فدل الكلام على أنه أراد "فلئن عفوت لأعفون عفواً عظيماً، لأن الإنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب يسير" فلما كان اللبس في هذين زائلاً عن جميع السامعين، لم يُنكر وقوع الكلمة على معنيين مختلفين في كلامين مختلفي اللفظ (20).

خطة ابن الأنباري في "الأضداد"

1- لم يرتب كتابه حين وضعه ترتيباً أبجدياً، كما جرت العادة في وضع المعجمات. ولذلك فإنه بدأ بحرف هو السابع عشر في الأبجدية العربية هو "الظاء" في كلمة "الظن" التي استغرق شرحها زهاء خمس صفحات. في حين نجد حرفي "الألف" و "الجيم" في الصفحات الأخيرة من الكتاب، ورقمهما هو "308" و "309". وعدد صفحات الكتاب "المطبوع" هو ثلاثمئة وخمس وسبعون ورقة.

2- لم يميز ابن الأنباري في عرض مفرداته وشرحها بين فعل وبين اسم وبين حرف. كان يقدمها ويتحدث عنها كيفياً على هواه، منتقلاً من الحروف إلى الأسماء فالأفعال دون حرج. ففي صفتين متاليتين في الكتاب تحدث عن هذه الكلمات:

- "مُشِبٌ" - اسم: للمسن وللشباب.

- "أَعْبَلٌ" - فعل: إذا سقط ورقه. وإذا أخرج ثمرته.

- "طلعت" - فعل: على الرجل: أقبلت عليه. وأدبرت عنه (21).

3- يعتمد الإسهاب في الشرح، باستمرار، وربما لا تدعو الحاجة إلى ذلك. انظر إلى هذا

الإسهاب: في حديثه عن "أشد" يقول: "بلغ فلان أشده إذا بلغ ثماني عشرة سنة. وبلغ أشده إذا بلغ أربعين سنة. قال الله تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة". قال الفراء: ويقال الأشد أربعون سنة. قال وحكى لي بعض المشيخة بإسناد ذكره أن الأشد ثلاث وثلاثون سنة، والاستواء أربعون سنة (22) .. إلخ..

4- يعيل إلى الاستطراد كلما سنحت أمامه فرصة لذلك، ولا غرابة ما دام قد ولد بعد وفاة سيد الاستطراد وظريفه الجاحظ بعشرين سنة تقريباً: "الجاحظ: 163 - 255هـ. ابن الأثير: 271 - 328هـ" فلا بد أنه قرأه جيداً، وتأثر بأسلوبه في الكتابة. فلننظر ماذا فعل وهو في صدد كلمة "وثب". يقال: وثب الرجل إذا نهض وطف من موضع إلى موضع. وجميز تقول: وثب الرجل إذا قعد. وقال الأصمعي وغيره: دخل رجل على ملك من ملوك حمير، وكان الملك جالساً في موضع مشرف، فارتقى إليه، فقال الملك: ثب! يريد: اجلس. فطفر فسقط فاندقت عنقه. فقال الملك: من دخل "ظفار" "حمز" أي: تكلم بلسان حمير. وقال بعضهم: معنى "حمز" تزياً بزئهم، وليس الحمز من الثياب. و "ظفار" اسم مدينة باليمن، ينسب إليها الجزع الظفاري. و "ظفار" كسرت لأنها أجريت مجرى ما سمي بالأمر كقولك: قطام وحذام لأنهما على مثال: قوال ونظار. ومن ذلك: خلاق من أسماء المنية، وطمار اسم جبل (23).

5- يقدم الحكاية مع الشاهد، بين وقت وبين آخر، خلال شرحه مفرداته في الأضداد. مثال ذلك ما كان وهو يتحدث عن لفظة "لحن" فبعد أن بين أنها تقال للخطأ وللصواب، وبين وجوهاً وشواهد في ذلك، قال، مورداً حكاية:

"خبرنا الأصمعي عن عيسى بن عمر قال، قال معاوية للناس: كيف ابن زياد فيكم. قالوا: ظريف على أنه يلحن، قال: فذاك أظرف له. ذهب معاوية إلى أن معنى يلحن: يقطن ويصيب (24). وثمة حكاية مثلها -والحكايات كثيرة- رواها بعد العنينة. قال: كتب معاوية إلى زياد كتاباً، وقال للرسول: إنك ستري إلى جانبه رجلاً، قل له: إن أمير المؤمنين يقول لك قد شككت في قولك: فإن يك حبيهم رشداً أصبه وليس بمخطئ إن كان غيياً

والرجل المقصود هو: أبو الأسود، القائل:

يقول الأزدلون بنو قُثَينير

بنو عم النبي وأقربوه

فإن يك حبيهم رشداً أصبه

وليس بمخطئ إن كان غيياً

فقال (الرسول) لأبي الأسود ما قال معاوية. فقال: قل له لا علم لك بالعربية، قال الله عز وجل: "وإننا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" أفترى ربنا شك. فسكت معاوية لما بلغه احتجاج أبي

الأسود(25).

وكان ابن الأنباري يتحدث عن "جَبْر"، فهي: للملك والعبد، مستشهداً بقول ابن الأحرر:
 فاسلم براوق خيبت به
 واتعم صباحاً أيها الجبر.

فإذا هو يستطرد إلى حديث آخر. قال:

"أراد أيها الملك. وقولهم: جبرئيل. معناه: عبد الله. فالجبر العبد، و "الإيل" و "الإل" الربوبية. وكان ابن يعمر يقرأ "جَبْرُ إِلٍّ" بتشديد اللام. وقال بعض المفسرين "الإل" هو الله جل اسمه. واحتج بقول الله جل وعز "لا يرفقون في مؤمن إلا ولا ذمة" قال: معناه لا يرفقون الله ولا ذمته. ويحكي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن المسلمين لما قدموا عليه، من قتال مسيلمة استقرأهم بعض قرآنه فلما قرئ عليه عجب وقال: إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ أي: من ربوبية. ويقال: الإل القرابة والذمة والعهد(26)... إلخ"

ثم لا ينتهي هذا الاستطراد، ذلك أننا نقرأ بعد قليل: "وقال بعض المفسرين: جبرئيل معناه: عبد الله. وميكائيل معناه: عبد الله. واسرافيل معناه: عبد الرحمن. وكل اسم فيه إيل فهو معبد لله عز وجل(27)".

6- كان يلجأ إلى تأويل معاني الأضداد في ضوء الآيات القرآنية والحديث الشريف، من ذلك كلمة: "الأمة" فنقل للواحد الصالح الذي يؤتم به ويكون علماً في الخير، كقوله عز وجل: "إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً" ويقال: الأمة للجماعة، كقوله عز وجل "وجد عليه أمة من الناس يسقون" ويقال: الأمة أيضاً للواحد المنفرد بالدين. قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قلت: يا رسول الله، إن أبي قد كان على ما رأيت وبلغك، أفلا أستغفر له. قال: بلى، يُبعث يوم القيامة أمة وحده. ويفسر هذا الحرف -الكلمة- من كتاب الله تعالى تفسيرين متضادين، وهو قوله جل وعز: كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" فيقول بعض المفسرين: معناه كان الناس مؤمنين كلهم. ويقول غيره معناه: كان الناس كفاراً كلهم. فالذين قالوا: الأمة ههنا المؤمنون، ذهبوا إلى أن الله عز وجل، لما غرق الكافرين من قوم نوح بالطوفان، ونجى نوحاً والمؤمنين، كان الناس كلهم في ذلك الوقت مؤمنين، ثم كفر بعضهم بعد الوقت، فأرسل الله إليهم أنبياء يبشرون وينذرون ويدلونهم على ما يسعدون به ويتوفر منه حظهم. ومن قال: الأمة في الآية معناها الكافرون، قال: تأويل الآية: كان الناس قبل إرسال الله نوحاً كافرين كلهم، فأرسل الله نوحاً وغيره من النبيين والمبعوثين بعده يبشرون وينذرون، ويدلون الناس على ما يتدينون به، مما لا يقبل الله تعالى يقوم القيامة غيره. والله أعلم بحقيقة القولين وأحكم(28)

وفي مثل هذا يقدم تفسيرين متضادين لقوله تعالى "والعاديات ضبحاً" يقول بعضهم: العاديات الخيل. والضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدون. يقال: قد ضبح الفرس وقد ضبح الثعلب، وكذلك ما أشبههما. ويقال: العاديات الإبل. وضبحاً معناه ضبعاً، فأبدلت الحاء من العين. كما تقول العرب: بُعْث

ما في القبور وبحتر ما في القبور، فمن قال: العاديات الخيل، قال: هي الموريات قدحاً، لأنها توري الناس بسنابكها إذا وقعت على الحجارة، وهي المغيرات صباحاً، ومن قال: العاديات الإبل، قال: الموريات قدحاً للرجال، يتبين من رأيهم ومكرهم ما يشبه النار التي توري في القذح. والمغيرات صباحاً: الإبل يذهب إلى أنها تعدو في بعض أوقات الحج. ثم يقدم ابن الأنباري خبراً عن مجادلة كانت بين ابن عباس (ر) والإمام علي كرم الله وجهه، حول هذين التفسيرين. وقد قال الإمام علي: إن كانت أول غزوة في الإسلام ليدر، وما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير، وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات الخيل؟! إنما العاديات صباحاً من "عرفة" إلى "المزدلفة" ومن "المزدلفة" إلى "منى" فإذا كان الغد فالمغيرات صباحاً إلى "منى" فذلك جمع. فأما قوله: فأثرن به نعماً، فهو نفع الأرض حين تطوه بأخفافها. قال ابن عباس، فنزعت عن قلبي ورجعت إلى قول علي رضي الله عنه (29)

7- تبدو النزعة العربية واضحة لدى ابن الأنباري، بين موضع وبين آخر في الكتاب. فهو يمر بأسماء يعرفها كثيرون على أنها أعجمية، يرى وجهاً لعروبتها، لكنه يتحفظ قائلاً "لا قياس". من ذلك مثلاً اسم يعقوب.

يقول ابن الأنباري: يكون عربياً لأن العرب تسمي ذكر الخجل يعقوباً ويجمعونه: يعاقيب. قال سلامة بن جندل:

أودى الشبَاب حميداً ذو التعاجيب
أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه
لو كان يدركه، ركضَ اليعاقيب

وهناك اسم "اسحاق" وقوله فيه: يكون أعجمياً مجهول الاشتقاق، فيمنع الإجراء في باب المعرفة بنقل التعريف والعجمة. ويكون عربياً من أسحقه الله إسحاقاً أي أبعداه، من ذلك قوله جل اسمه: "فسحقاً لأصحاب السعير" أي: بعداً لهم.

ومثل ذلك اسم "أيوب" وفيه يقول ابن الأنباري: يكون أعجمياً مجهول الاشتقاق، ويكون عربياً مجزئاً في حال التعريف والتذكير، لأنه يجري مجرى قيوم من: قام يقوم. ويكون فيعولاً من "أب-يؤوب" إذا رجع.

قال عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يؤوب
وغائب الموت لا يؤوب

ويتمهل ليتحفظ مع أبي بكر الذي قال: ولا يقاس على هذه الأسماء الثلاثة، أعني: اسحاق ويعقوب وأيوب، غيرها من الأسماء الأعجمية مثل إدريس وغيره، لأنه لم يسمع من العرب إجراء سوى هؤلاء الثلاثة في باب المعرفة. و محال أن يعمل من هذا بالقياس ما تنكبه العرب ولا تعرفه (30).

الألفاظ والمعاني: النقائص والمترادفات

يتوقف ابن الأنباري منياً في مقدمة كتابه، أمام ما يمكن أن ندعوه: الأضداد أو النقائص، والمترادفات، فيقول إن أكثر كلام العرب يأتي على ضربين آخرين، أحدهما أن يقع اللفظان المختلفان على المعنيين المختلفين كقولك: الرجل والمرأة، والجمل والناقة، واليوم والليلة، وقام وقعد، وتكلم وسكت. وهذا هو الكثير الذي لا يحاط به. والضرب الآخر، أن يقع اللفظان المختلفان على المعنى الواحد، كقولك: البَرّ والحنطة. والغيز والحمار، والذنب والسيد، وجلس وقعد. وذهب ومضى.

ويرفض ابن الأنباري أن يعد هذه الألفاظ مترادفات، كما درج بعضهم على ذلك. محتجاً برأي ابن الأعرابي نقلاً عما قاله أبو العباس: كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به. وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله.

ويؤكد ربط الأسماء بالمعاني في هذا الحديث، ناقلاً عن الرجل نفسه: الأسماء كلها لعلّة خصت العرب ما خصصت منها من العلل ما نعلمه منها وما نجهله.

ثم يتابع عن ابن الأعرابي، مسنداً الكلام إلى أبي بكر، أن مكة سميت مكة لجذب الناس إليها. والبصرة سميت البصرة للحجارة البيض الرخوة بها -والكوفة سميت الكوفة لآرذحام الناس بها من قولهم: قد تكوف الرمل تكوفاً إذا ركب بعضه بعضاً. والإنسان سمي إنساناً لنسيانه. والبهيمة سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز من قولهم: أمر مبهم، إذا كان لا يعرف بابه. ويقال للشجاع: بهمة لأن مقاتله لا يدري من أي وجه يوقع الحيلة عليه. فإن قال لنا قائل: لأي علة سمي الرجل رجلاً، والمرأة امرأة، والموصل الموصل، ودعد دعداً. قلنا لعل علمتها العرب وجهلناها أو بعضها(31).

الاتساع في الكلام

وفي معرض تأويله ارتباط الأسماء بالمعاني، يطرح فكرة أخرى لسا ندري إلى أي درجة كانت جديدة في زمان ابن الأنباري هي "الاتساع في الكلام": وهنا ينقل عن قُطْرُب قوله: "إنما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم في كلامهم، كما زاحفوا في أجزاء الشعر ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم، وأن مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب. ثم ينوع ابن الأنباري على هذا اللحن، ناسباً الكلام إلى آخرين قالوا: إذا وقع الحرف -الكلمة- على معنيين متضادين، فالأصل لمعنى واحد، ثم تدخل الاثنان على جهة الاتساع. فمن ذلك: الصريم. يقال: صريم وللنهار صريم. لأن الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وكذلك: الصارخ المغيث. والصارخ المستغيث. سمياً بذلك لأن المغيث يصرخ بالإغاثة والمستغيث يصرخ بالاستغاثة، فأصلهما من باب واحد. وكذلك: السُدفة، الظلمة والسُدفة، الضوء. سمياً بذلك لأن أصل السدفة الستر، فكان النهار إذا أُقِيل ستر ضوءه ظلمة الليل،

وكان الليل إذا أقبل سترت ظلمته ضوء النهار (32).

المعاني بين أحياء العرب

وفي تقليبه الرأي حول المعنيين المتضادين لكلمة واحدة ينتهي ابن الأنباري إلى القول: إذا وقع الحرف -الكلمة- على معنيين متضادين، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما، ولكن أحد المعنيين لحي من العرب، والآخر لحي غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء. قالوا: فالجوز، الأبيض في لغة حي من العرب. والجوز، الأسود في لغة حي آخر، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر (33).
ثم ينتقل إلى بحث في عين الفعل في الإطار نفسه.

التفاسير المتضادة: ذو القرنين

ويرى ابن الأنباري أن الأضداد يمكن أن تتضمن "التفاسير المتضادة" أيضاً، مما لا علاقة مباشرة له بالألفاظ. من ذلك مثلاً قوله تعالى "ويسألونك عن ذي القرنين". وفي شرحه ذلك يعرض حكاية: أن خالد بن معدان قال سمع عمر رحمه الله رجلاً يقول لرجل إذا ذا القرنين. فقال: أما ترضون أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى صرتم تسمون بأسماء الملائكة.

التفسير الثاني بعد العنعة ينقله عن مجاهد. قال: ملك الأرض شرقها وغرباً أربعة، مؤمنان وكافران. فأما المؤمنان فسلیمان بن داود وذو القرنين. وأما الكافران فالذي حاج إبراهيم في ربه، يعني: نمرود وبخت نصر.

والتفسير الثالث ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ذي القرنين أنبيأ كان أم ملكاً؟

فقال: ليس بنبي ولا ملك، ولكنه عبد صالح أحب الله فأحبه، وناصر الله فناصره. بعثه الله عز وجل إلى قومه فضربوه على قرنه الأيمن فمات. ثم أحياه الله فدعاهم، فضربوه على قرنه الأيسر فمات وفيكم مثله. وقال الحسن: إنما سمي ذو القرنين ذا القرنين لأنه كان في رأسه صغيرتان من شعر يطأ فيهما. قال لبيد بن ربيعة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويماً
بالجنو في جدث، أميم، مقيم

وذو القرنين هذا، قال، النعمان بن المنذر، لأنه كانت في رأسه صغيرتا شعر.

أما التفسير الرابع فقد ذكره ابن شهاب الزهري الذي قال: سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مشرقها، وقرنها من مغربها. وقال وهب ابن منبه: سمي ذا القرنين لأنه ملك فارس والروم (34).

الألفاظ والمعاني: وزن فعول

وينقل ابن الأنباري هذا الوجه عن قطرب؛ يقال: ركوب للرجل الذي يركب. وركوب للطريق

الذي يركب. وأنشد

يَذَعْنَ صَوَانَ الحصى ركوبا

أي مركوباً. وأنشد لأوس بن حجر

تَضَمَّنْهَا وَهَمْ رَكُوبٌ كَأَنَّهُ

إِذَا ضَمَّ جَنْبِيهِه المَخَارِمَ رَزَقُ

الرزق الصف من الناس، وأصله أعجمي.

وعلى هذا المنوال يتابع حديثه على وزن "فعل" قائلاً: وكذلك (الفجوع) يكون الفاجع والمفجوع. ومثل ذلك "ذعور": تحتمل تأويلين أحدهما، ذعرت رجلاً مذعوراً. والتأويل الآخر، ذعرت رجلاً يذعر الناس.

وكذلك (الزجور) يقال للزاجر وللناقة التي لا تدر حتى تزجر.. و (الرغوث) و (النهوز) (35).. إلخ.

الألفاظ والمعاني: التصغير.

يقول ابن الأثيري إن التصغير من الأضداد، لأنه "يدخل لمعنى التحقير ولمعنى التعظيم. فمن التعظيم قول العرب: أنا سُرْتِيسِرُ هذا الأمر. أي أنا أعلم الناس به. ومنه قول الأنصاري يوم السقيفة: أنا جَذْبِيلُهَا المُحَكِّكُ، وَغَذْيُهَا المُرْجَبُ. أي أنا أعلم الناس بها، فالمراد من هذا التصغير التعظيم لا التحقير. والجذيل تصغير الجذل وهو الجذع وأصل الشجرة. والمُحَكِّكُ الذي يُحَكِّكُ به. أراد: أن يُسْتَفَى برأيي كما تُسْتَفَى الإبل أولات الجرب باحتكاكها بالجذع. والغذيق تصغير العذق، وهو الكباسة والشمراخ العظيم. والمُرْجَبُ الذي يُعَمَدُ لعظمه. وقال لبيد في هذا المعنى:

وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دَوِيهَةٌ تَصْفِرُ مِنْهَا الْأَمَامِلُ

فصغر الداهية معظماً لها، لا محقراً لشأنها.

وبحث... في التصغير

ثم يدخل ابن الأثيري في بحث نحوي في التصغير فيرى أنه على ثمانية أوجه.. إلا أن ما يهمنا منها هنا:

- تصغير العين لنقصان فيها كقولك: هذا حُجَيْرٌ، إذا كان صغيراً. وكذلك: هذه دَوِيْرَة إذا لم تكن كبيرة واسعة.

- ويكون التصغير على جهة تحقير المصغر في عين المخاطب وليس به نقص في ذاته ولا صغر كقول القائل: ذهبت الدنانير فما بقي منها إلا ذُنَيْنِيرٌ واحد. وكذلك: هلك القوم، فما بقي إلا أهل بُيُوتٍ

- ويكون التصغير على معنى الذم كقولهم: يا فُؤَيْسِق، يا خُبَيْثٌ.
- ويكون التصغير على معنى الرحمة والإشفاق والعطف كقولهم للرجل: يا بنيَ ويا أخِي والمرأةَ يا أُخِيَّةَ (36).

أمثلة أخرى من الأضداد: الأفعال

يرجع ابن الأنباري في فعل 'يهوي' إلى 'قطرب' لإثبات أنه من الأضداد، فيقول: يكون بمعنى يصعد، ويكون بمعنى ينزل، وأنشد والدلو تهوي كالعقاب الكاسر وقال: معناه تصعد. والمعروف في كلام العرب، هوت الدلو تهوي هُويًا إذا نزلت. قال ذو الرمة:

كأن هوى الدلو في البئر شلَّة
بذات الصوى آلافه واتشلالها.

آلاف جمع ألف (37).

وفي تقديمه الفعل 'أخفيت' الشيء: إذا سترته، وأخفيتّه إذا أظهرته، يستشهد بقوله تعالى 'إن الساعة آتية أكاد أخفيها' فمعناه أكاد أسترها، وفي قراءة 'أبي'. أكاد أخفيها من نفسي، فكيف أطلعكم عليها. ويذهب إلى أن تأويل من نفسي، من قبلي ومن غيبي، كما قال تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. ويقال: معنى الآية أن الساعة آتية أكاد أظهرها. ويقال: خفيت الشيء إذا أظهرته. ويستشهد على معنى الإظهار بقول الشاعر:

يخفى السراب بأظلاف ثمانية
وعلى معنى الإخفاء بقول الكندي:

فإن تدققوا الداء لا نخفه
في أربع مسهن الأرض تحليل.

وعلى معنى الإخفاء بقول الكندي:

فإن تدققوا الداء لا نخفه
وإن تبغثوا الحرب لا نقعد (38)

وفي 'حبت' النار: إذا سكنت وإذا حमित يستشهد بقول الكميت:

ومنا ضرار وإنماه وحاجب
مؤجج نيران المكارم لا المخبي

أراد بالمخبي المسكن للنار.

ثم ينتهي إلى قوله تعالى 'كلما حبت زناهم سعيراً'. يقول ابن الأنباري: قال بعض المفسرين معناه توقدت. وهذا ضد الأول. ويروي عن الحجاج عن ابن جريج -بعد العننة- أنه قال في 'كلما حبت': حبوها توقدها، فإذا أحرقتهم فلم تبق منهم شيئاً، صارت جمرأ يتوهج، فإذا أعادهم الله عز وجل خلقاً جديداً عاودتهم (39).. ثم يتابع الاستشهاد والتأويل في هذين المعنيين المتضادين.

وفي عننة تنتهي إلى عبد الله بن الزبير يقدم الفعل 'تلحج' بمعنى إذا أقام في الموضع وثبت،

وإذا زال، يروي عن رسول الله (ص) أنه لما هاجر إلى المدينة ودخلها، جاءت به ناقته إلى موضع المنبر فاستناخت وتلححت.

وفي تأويل ذلك، يقول: إذا كان تلحج بمعنى أقام وثبت، فأصله تلحج من الإلحاح، فاستثقلوا الجمع بين ثلاث حاءات، فأبدلوا من الثانية لاماً، كما قد قالوا: صرصر الباب، وأصله: صر، فأبدلوا من الراء الثانية صاداً.

ويتابع: ويقال قد تحلل الرجل إذا زال وأصله تحلل، فأبدلوا من اللام الثانية هاء، كما قالوا: قد تكممك الرجل إذا ليس الكمة وهي القلنسة، أصله (40): تكمم.

واعتماداً على قوله تعالى قل لا تعتذروا يقدم الفعل "اعتذر" إذا أتى بعذر أو لم يأت. وفي تفسير الآية يقول: إنهم اعتذروا بغير عذر صحيح. ويقال أيضاً: قد عذر الرجل في الحاجة، إذا قصر فيها. وقد أعذر إذا بالغ ولم يقصر. من ذلك قولهم: قد أعذر من أنذر أي قد جاء بمحض العذر (41).

أضداد من الأسماء

"الحن" يقال للخطأ، ويقال للصواب. يقول ابن الأنباري: فأما كون اللحن على معني الخطأ، فلا يحتاج فيه إلى شاهد. وأما كونه على معنى الصواب، فشاهده قول الله عز وجل "لتعرفنهم في لحن القول" معناه في صواب القول وصحته (42) .. إلخ.

و "المستخفي" يكون الظاهر ويكون المتواري. فإذا كان المتواري فهو من قولهم: قد استخفي الرجل، إذا توارى. وإذا كان الظاهر فهو من قولهم: خفيت الشيء، إذا أظهرته. من ذلك الحديث المروي: ليس على المختفي قطع. معناه: ليس على النبأش. وإنما سمى النبأش مختفياً لأنه يخرج الموتى ويظهر أكفانهم (43).

و "بعض" يكون بمعنى بعض الشيء وبمعنى كله. قال بعض أهل اللغة، في قول الله عز وجل حاكياً عن عيسى عليه السلام "ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه"

معناه: كل الذي تختلفون فيه. واحتج بقول لبيد:

تُرَاكُ أَمَكْنَةُ إِذَا لَمْ أَرْضَها أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامَها

معناه: أو يعتلق كل النفوس، لأنه لا يسلم من الحمام أحد، والحمام هو القدر.

ويتابع ابن الأنباري قائلاً: وقال غيره: بعض ليس من الأضداد ولا يقع على الكل أبداً. وقال في قوله عز وجل: ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه: ما أخضر من اختلافكم، لأن الذي أغيب عنه لا أعلمه، فوقعت (بعض) في الآية على الوجه الظاهر فيها. وقال في قول لبيد: "أو يعتلق بعض النفوس حمامها": أو يعتلق نفسي حمامها، لأن نفسي هي بعض النفوس.

و "خرق" من أسماء الأضداد، يقال للرجل القصير حرف، ويقال للناقة العظيمة حرف. وقال

- | | |
|--|--|
| 39- المرجع نفسه- ص 150، 151 | 29- المرجع السابق، ص 318، 319، 320 |
| 40- المرجع نفسه- ص 205، 206 | 30- المرجع السابق- ص 364- 365 |
| 41- المرجع نفسه- ص 280. | 31- المرجع السابق- ص 6-7 |
| 42- المرجع نفسه- ص 207 | 32- المرجع السابق- ص 7-8 |
| 43- المرجع نفسه- ص 63 | 33- المرجع نفسه- ص 10 |
| 44- الأضداد في اللغة- ابن الأثيري- ص 155-156 | 34- الأضداد في اللغة. تأليف: ابن الأثيري- ص 309، 310 |
| 45- المرجع السابق- ص 173 | 35- المرجع السابق- ص 312 |
| 46- المرجع السابق- ص 183 | 36- المرجع السابق- ص 254، 255 |
| 47- المرجع نفسه- ص 169 | 37- المرجع السابق- ص 332 |
| 48- المرجع نفسه- ص 165- 166 | 38- المرجع السابق- ص 80 |

□□□

-التعدين أساس علم الكيمياء-

إسهام الشعوب العربية في تقدم علم التعدين

أ.د. محمد زهير البابا

مقدمة:

علماء الآثار منذ القرن السابع عشر للميلاد بالتدقيق في مختلف الأقطار العربية والبحث عن مدن قديمة دثرت منذ أقدم العصور. لقد تبين لهؤلاء الباحثين وجود كثير من المدن، وخاصة في سورية، قد تحولت لتلال من الأحجار والأنربة، من جراء كوارث طبيعية، أو نتيجة حروب مدمرة قضت عليها. وبما أن العادة قد جرت، عند خراب مدينة ما، أن يعاد البناء فوقها، لذلك غالباً ما يجد المنقبون طبقات متراكمة بعضها فوق بعض، تضم آثاراً تعود لأرمئة متدرجة بالقدم.

كانت آثار وادي النيل من أوائل ما اكتشف المنقبون. إلا أن جهلهم للخط الهيروغليفي حال دون معرفتهم للأحداث التاريخية والمستوى الحضاري للشعب المصري في العصر الفرعوني. ولكن بعدما استطاع العالم شامبليون قراءة ذلك الخط اتضحت أسرار تلك الحضارة العريقة.

وهذا ما حصل أيضاً في بلاد الرافدين والهلال الخصيب، ذلك لأن الخط المسماري وقف عائقاً دون تفسير ماورد في الألواح الطينية التي وجدت بأعداد كبيرة في مدن سومر وآكاد وبابل وأشور، وخاصة في أوغاريت وماري وإيبلا. أما الآن فقد تمكن بعض علماء الآثار من أجانف وعرب، من قراءة ذلك الخط الذي دوتت به لغات ولهجات عدة أقوام قطنوا في تلك المدن، منذ الألف الرابع قبل الميلاد حتى القرن الأول منه.

كانت شعوب العالم الغربي تعتبر الحضارة اليونانية، والتي يعود قدمها إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، ذروة الحضارات القديمة. ولكن بعد أن تم اكتشاف حضارة وادي النيل وبلاد

الرافدين، والتي يعود تاريخها إلى الألف الخامس والرابع قبل الميلاد، تغيرت نظرة علماء التاريخ للأمر، وصاروا يسعون لمعرفة العلاقات التي كانت تربط بين تلك الحضارات. لقد بينت الأبحاث والندوات، التي عقدت وتُعد في الوقت الحاضر، فضل شعوب الشرقين الأدنى والأقصى في اكتشاف كثير من العلوم النظرية والتكنولوجية، ومنها علم التعدين. من المعلوم أن اكتشاف المعادن ومعرفة الطرق المؤدية للاستفادة منها تعد أحد الأسباب الأساسية للرفاهية التي تتمتع بها أكثر شعوب الأرض. وبما أن الثروة المعدنية لقطر من الأقطار تعد مصدراً رئيساً لدخله القومي غالباً، لذلك سأسعى في بحثي هذا أن أبين إسهام الشعوب العربية في اكتشاف مناجم المعادن، وبيان توزعها الجغرافي في بلادهم. ومعرفة طرق فحصها وتصنيعها معتمداً على الأمور الآتية:

- 1- بيان المكتشفات الأثرية الحديثة والتي تبين تقدم علم التعدين في الأقطار العربية.
- 2- ذكر ما رُود في المؤلفات العربية التراثية، من كتب تاريخ وجغرافيا طبيعية، والتي تعرف عادة باسم المسالك والممالك، تقويم البلدان، المدن والأمصا... حيث نجد إحصاءات ومعلومات دقيقة عن المناجم المنتشرة في تلك الأقطار، وعن صفات ما يستخرج منها من فلزات معدنية، وكيف يتم صهرها وتنقيتها وسكبها، وغير ذلك من الأعمال التكنولوجية.
- 3- المؤلفات العربية في علم كيمياء المعادن، وخاصة ما كتبه جابر بن حيان وأبو بكر الرازي، المخطوط منها والمطبوع، بالإضافة إلى الكتب التي تذكر الجواهر والأحجار في العالمين العربي والإسلامي؛ وهي من مؤلفات البيروني والأقفاني والتيفاشي وغيرهم.

التنقيبات الأثرية والمؤلفات التراثية

تدل على فضل الشعوب العربية في تقدم علم التعدين

لقد دلت التنقيبات الأثرية، التي جرت في البلاد الواقعة على أطراف الخليج العربي، أن تلك الأماكن كانت مأهولة بالسكان خلال العصر الجليدي. ففي مواضع مختلفة، منها رأس عوينة علي، الواقعة في شبه جزيرة قطر، وفي مواضع أخرى من البحرين، عثر المنقبون على أدوات حجرية تعود إلى العصر الحجري القديم (الباليوليتيك)، أي قبل خمسين ألف عام. ومما عثر عليه أحجار صوانية، على شكل حراب وسكاكين، وأخرى على شكل مناجل، مما يدل على أنها كانت تستعمل في تقطيع لحم الفرائس، أو لحصد المزروعات أو للدفاع عن النفس.

وفي جزيرة فيلكا عثر المنقبون أيضاً على آثار وسكن وهياكل يرجع عهدها إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد تبين للباحثين أن هذه الجزيرة، وكذلك السواحل والجزائر الأخرى الواقعة على الخليج، كانت ملاجئ يأوي إليها الملاحون والتجار، خلال تلك الأزمنة، للاستراحة، وللحصول على ما يحتاجون إليه عند أهل هذه السواحل من ماء عذب وغذاء.

ونظراً لأهمية هذه السواحل والجزائر سعت الشعوب، التي قطنت في بلاد الرافدين من أكاديين وبابلين وأشور ويونان، للاستيلاء عليها والتمتع بخيراتها ومواقعها الاستراتيجية.

ويقال أن سرجون الأكادي كان أول من استولى على البحرين وقطر حوالي عام (2300 ق.م)، كما ذكر أن جماعة من تجار أور كانوا يتاجرون مع البحرين منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وقد أنشؤوا لذلك أسطولاً لنقل البضائع المستوردة والمصدرة.

وفي أسطورة سومرية، عُثر عليها مدونة على أحد الرقم بالخط المسماري، وجد علماء الآثار وصفاً لجزيرة البحرين، التي أطلق عليها اسم دلمون. ويقول كاتب تلك الأسطورة إنها أرض السلامة والنظافة، الجنة التي لا يعرف فيها الموت ولا الأمراض والأحزان، والتي لا ينعجب فيها غراب، ولا تفترس أسودها وذئابها البشر ولا الأغنام.

كانت دلمون محطة مهمة للتجارة بين الهند وإفريقية وسواحل الخليج، تستورد الأخشاب والتوابل والعقاقير من الهند وإفريقية، وتنتقل النحاس من عمان إلى العراق، ومنه تحصل على ماتحتاج إليه من غذاء وكساء. ويقول العالم بارتون إن بعض الرسائل الملكية تدل على أن الملك مانشتوسي، والذنارام سين الأكادي، قد أرسل حملة عسكرية بحرية، عام (2306-2292 ق.م، عبرت البحر الأسفل (الخليج العربي)، وتغلبت على سكان السواحل، واستولت على الجبال الواقعة في الجنوب، وأخذت مافيها من الأحجار، فصنعت منها تماثيل قدمها الملك نذراً للإله أنليل. كما عُثر على نصوص تبين من دراستها أنها عقود جرت لتبادل الفضة والنحاس مع التجار.

صناعة الفخار والخزف والزجاج:

اهتم سكان بلاد الرافدين، شأنهم شأن بقية الشعوب المتوعدة بالقدم، بصنع الأدوات والأسلحة التي يحتاجون إليها من الأحجار المنتشرة في أطراف بلادهم. وبما أن المواد الغضارية تستر أكثر أراضيهم لذلك لجؤوا إليها لصنع الأدوات المنزلية، كما استفادوا منها لصنع ألواح كتبوا عليها بالخط المسماري الذي اخترعه. وكانوا يكتفون بمزج الغضار بالماء وصنع تلك الأدوات ثم تركها لتجف تحت أشعة الشمس. وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد اهتموا لشيء تلك الأدوات والألواح، وهذا ما أكسبها صلابة ومقاومة للتفتت، الناجم عن الرطوبة أو الاحتكاك. وفي منتصف الألف الثاني قاموا بطلي بعض تلك الأدوات بطيقة من الزجاج.

ويُعدّ ترجيج الفخار من أوائل الصناعات الكيماوية التي اهتمدى إليها الإنسان. ويقول الدكتور سارتون إنه يوجد في المتحف البريطاني بلندن لوح مسماري صغير، يعود تاريخه إلى عصر الملك جولكيشار (1690-1636 ق.م، نقش على وجهه وصفة عملية لترجيج الفخار، أي تحويله لخزف. وتدل هذه الوثيقة على الطريقة التي كان يعمد إليها سكان الرافدين لطلي الفخار بطيقة رقيقة من مادة زجاجية، فتكسبه صلابة وملاساً ولمعاناً وجمالاً. ويتم ذلك بأخذ أوزان معينة من فئات النحاس والرصاص والزجاج المكسّر، تجعل بشكل سائل باستعمال الخل. وتغمس به الأواني الفخارية، ثم

تشوى داخل فرن تشتعل فيه النار، وتخرج منه بعد ذلك وتترك لتبرد في العراء، وبذلك يتلون الفخار بلون أخضر.

ويقول سارتون إن هذه الوثيقة لا تقتصر أهميتها على كونها أقدم سجل معروف عن وصف عملية التزجيج، بل إن الوثائق الأخرى المماثلة لم تظهر في بلد آخر إلا بعد ذلك بألف عام.

لقد تغن صانعو الخزف باختيار الغضار المناسب لصنع الفخار، فاليمينيون مثلاً كانوا يجلبونه من الصين. أما لتلون الخزف فقد اهتموا إلى معرفة الأكاسيد المعدنية المناسبة لتلوينها بالألوان المطلوبة. ومما ساعد على تقدم عملية التزجيج وجود قطع من الزجاج الطبيعي، مبعثرة بين الرمال، وهي تحصل في الطبيعة من اتحاد حبيبات الرمال الناعمة (وتركيبتها أكسيد السيليسيوم) مع الأملاح القلوية الناتجة من احتراق النباتات.

وبما أن وادي النيل غني بالرمال وبملح النطرون، الذي يدخل في تركيبه فحمات الصوديوم وفحمات البوتاسيوم، لذلك اهتم المصريون منذ فجر التاريخ أيضاً لصنع الزجاج. وقد تقدمت هذه الصناعة في مصر وفي غيرها من بلاد الشرقيين الأقصى والأدنى، وخاصة بين القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد. وأصبح العمال ينتجون أواني خزفية وزجاجية، جميلة الأشكال رائعة الألوان. وقد اشتهر الزجاج المصري بألوانه المتعددة، ومنها البنفسجي، علماً أن هذا اللون ينشأ من أكسيد الكوبالت، وهو معدن لا يصادف في أرض مصر، مما يدل على قيام المصريين القدماء بالبحث عنه في الأراضي المجاورة لبلادهم.

ومن الأدوات الفخارية التي انفرد بصنعها سكان الرافدين الأختام، وألواح الكتابة (الرقم)، والتي كانوا يستعملونها لتدوين الرسائل والعقود غالباً.

كان الكهنة في بلاد الرافدين هم الذين يعرفون القراءة والكتابة بالخط المسماري، منذ الألف الثالث قبل الميلاد. فإذا أراد أحد الملوك أو الأمراء أن يبرم معاهدة، أو يرسل رسالة إلى ملك آخر، أو أراد أحد الملاك أو التجار أن يسجل عقداً مع مستأجر أو بائع، التجأ إلى أحد الكهنة أو الكتبة. وبما أن العقود والرسائل كانت تنقش على ألواح طينية غضة لذلك كان لابد لكل فرد يتمتع بمكانة اجتماعية أو مالية، أن يكون له خاتم خاص يدل عليه، فيمهر به العقد أو الرسالة. ويتفاوت حجم الخاتم، وطريقة نقشه، ونوع الحجر المصنوع منه، حسب مكانة صاحبه. لذلك وجد المنقبون في خرائب مدن الرافدين أختاماً من الفخار أو العقيق أو اللازورد أو اليشب، أو غيرها من الأحجار الكريمة، منقوشة بأسماء أصحابها أو رموزهم.

التعدين أساس علم الكيمياء:

يقول العالم الفرنسي برتلو، في كتابه تاريخ علم الكيمياء "إن العلم البشري الأول ولد من صناعات التعدين البدائية. أي حينما اهتم الإنسان لصنع الخلائط المعدنية، وقام بتزجيج الفخار وصنع الزجاج وصنع الأقمشة، وتعلم استعمال الميزان....".

ويقول ديورانت، في كتابه تاريخ الحضارة: "إن النحاس كان أول معدن استخدمه الإنسان فيما نعلم، في أعلى مجرى الرافدين، في عصر يرجع إلى (4500 ق.م). ثم نجده في مقابر البداري في مصر، ويرجع عهده إلى مايقرب من (4000 ق.م). ونجده كذلك في آثار أور في زمن يرجع إلى (3000 ق.م).

كان سكان وادي النيل من أوائل الشعوب التي اكتشفت الذهب والفضة منذ فجر التاريخ. ذلك لأن هذين المعدنين يصادفان بشكل حبيبات من المعدن الحر، تجتمع على شكل عروق في باطن الصخور. وبتأثير السيول والأمطار تتفتت تلك الصخور وتحرر منها الحبيبات التي تصادف بين الرمال في مجاري السيول والأنهار، والموجودة خاصة في جنوب وادي النيل.

أما النحاس فقد اكتشف في صحراء سيناء على شكل فلزات كيريتية، واستحصلوه منها بإحراقها بعد مزجها بالفحم النباتي الذي يرجع الأكاسيد المعدنية، ويحرر المعدن.

ونظراً لليونة وقابلية التطريق، اللتين يتمتع بهما الذهب والفضة والنحاس، فقد صنعوا منها كثيراً من الأواني والأدوات والحلي، فاستعملوا بعضها للزينة وبعضها لتحضير الطعام. وقد أبدع المصريون في صنع التحف والتماثيل الذهبية، كما أبدع اليمينيون في صنع الحلي والأسلحة الفضية.

عصر البرونز والصفرة:

لم يصلح النحاس النقي في صنع الأسلحة لليونته، كما لم يصلح تماماً لصنع الأدوات المنزلية، لأنه سريع التحول إلى مركبات سامة حينما تكون الأطعمة حامضة.

لذلك لجأت بعض شعوب الشرق الأقصى والأوسط الأدنى إلى خلط النحاس بمعادن أخرى، لتكسبه القساوة والصلابة وسهولة الانصهار، وبذلك بدأ عصر البرونز. ولكن الزمن الذي حصل فيه اكتشاف خلائط النحاس يختلف من بلد لآخر، ويمكن القول بأن ذلك قد تم بين الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. ويذكر العالم سارتون أن المصريين قد استعملوا البرونز على نطاق واسع خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة (1580-1350 ق.م).

يتألف البرونز المصري من معدني النحاس والقصدير، مع قليل من الشوائب. وبما أن القصدير غير موجود في أرض مصر، لذلك بحث علماء التاريخ والجيولوجيا عن مصدره، فوجدوا أن أقرب مكان يمكن أن يجلب منه هو مدينة جبيل (بيبلوس) على الساحل السوري.

إن عدم وجود فلزات تجمع بين النحاس والقصدير في مصر يدل على أن المنشأ الأول للبرونز لم يكن في مصر. وهذا أمر طبيعي لأن صناعة التعدين كانت منتشرة في عدة أماكن من العالم القديم. وقد كان للفينيقيين دور هام في نقل المعادن ونشر صناعاتها بين دول البحر المتوسط منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

لقد عرف السومريون نوعاً آخر من البرونز، واستعملوه على نطاق واسع خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وكان يتألف من مزيج من النحاس والرصاص، وكلاهما كان متوافراً في منطقة الرافدين،

أو فيما يجاورها من الأقطار.

كانت عمليات التعدين، كالمعالجات الطبية، كثيراً ما يصاحبها الإخفاق. ولما كان سكان وادي الرافدين يؤمنون بتأثير الكواكب، في جلب السعد أو النحس، والشفاء أو المرض، لذلك فإن إمكان نجاح تحضير الخلائط المعدنية، وصهر المعادن وتقيتها، كان مرتبطاً بظهور بعض الكواكب، أو بأوضاعها المختلفة بالنسبة إلى بعضها مع بعض. وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن كثيراً من العمليات التكنولوجية كانت تصاحبها طقوس دينية وثنية لاسترضاء الأرواح الخفية المسيطرة على باطن الأرض. وقد أسبغ الكيميائيون والفلاسفة على العناصر التي اكتشفت فيما بعد، صفات الكائنات الحية، كما اعتقدوا بأن الصهر والمزج، الذي يتم بين تلك العناصر، كثيراً ما يؤدي إلى موت أو إحياء أو تزواج أو افتراق بينها.

اشتهرت الشعوب القديمة من سكان الشرق بتجربتها الواسعة في صناعة التعدين، وقد انتقل تراثها الحضاري إلى سائر شعوب البحر المتوسط. وهناك بعض الأساطير القديمة التي تؤيد ذلك، منها: أن أحد ملوك فينيقية، ويدعى قدموس Cadmus، قد جاء إلى بلاد اليونان بصناعة التعدين، وهو أول من استغاد من مناجم الذهب والفضة الموجودة في جبال مكدونيا.

كما يحكى أن أميراً فينيقياً آخر يدعى تاسوس Tassus استثمر مناجم الذهب الموجودة في جزيرة تقع شمال بحر إيجه فسميت الجزيرة باسمه.

ظهور علم الكيمياء:

يقول العالم هولميارد إن مصر كانت المهد الأول لظهور الكيمياء، وذلك في عهد البطالسة. ومما يؤيد ذلك اكتشاف كتاب لفيلسوف يدعى بولس ديموقريطس، يعود تاريخه إلى نحو عام (200ق.م).

عاش هذا العالم في مدينة مانديس Mendès، الواقعة في دلتا نهر النيل. ويقول هولميارد إن كتاب ديمقراطيس المذكور، والمسمى فيزيكا Physika، ينقسم إلى أربعة أقسام، تكلم فيها على صناعة الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأرجوان. ويضم هذا الكتاب مزيجاً غريباً من وصفات ومقتطفات تتعلق بتجارب عملية منشؤها مصر وسورية وبابل وبلاد فارس.

ومما يميز ديمقراطيس من أصحاب الصنائع والحرفيين اهتمامه بتحويل المعادن البخسة إلى ثمينة، وذلك بتلوين المعادن أو صبغها أو خلط بعضها ببعض أو إضافة بعض المواد الملونة لها، وخاصة الكبريت أو مشتقاته، وكذلك بعض المركبات الزرنيخية الطبيعية.

لقد تكلم كل من هولميارد وسارتون على برديات مكتشفة في مصر، تضم بعض المعلومات عن التعدين. وهذه البرديات محفوظة حالياً في متحف ليندن واستوكهولم. إلا أن علماء الآثار لم يستطيعوا تعيين قدمها، أي من عهد البطالسة أم ترجع إلى عهد قدماء الفراعنة.

ولكن من المؤكد أن المصريين قد أتقنوا صناعة الذهب وتصفيحه ولحمه وتحويله لأسلاك منذ عصر الأسر القديمة. وقد قام كيميائي مصري يدعى زوسيم Zosimos، عاش في النصف الثاني من

إن بعض هذه الأبنية لما تزل ماثلة الآثار، وقد وجد فيها قديماً أدوات ومواد كانت تستعمل في صناعة التعدين. وورد ذكر هذه الأبنية في عدة مؤلفات عربية، منها كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر) لمؤلفه الطبيب والمؤرخ عبد اللطيف البغدادي (ت629هـ/1231م).

لقد ثبت لعلماء الجيولوجيا والآثار أن مناجم النحاس والإثمد قد استثمرت منذ عصر الأسر القديمة، وأن تنظيم استثمارها حصل في زمن سنوسرت الأول (1935-1980 ق.م). ويقول العالم سارتون أن المصريين أقاموا في سيناء مساكن للعمال والموظفين وحصوناً لصد غزوات البدو. ونستطيع اليوم أن نرى بقايا تلك المستعمرات الخاصة بالتعدين والتي يرجع تاريخها إلى ثمانية وثلاثين قرناً قبل الميلاد.

مما سبق يتبين لنا أن المعادن الرئيسة التي اهتم بها المصريون كانت الذهب والفضة والنحاس والقصدير والإثمد (كبريت الاتيموان) المستعمل في صناعة الكحل. أما صناعة الحديد فقد تأخر ظهورها في مصر لسببين:

أولاً (لعدم اكتشاف مناجم الحديد فيها بصورة مبكرة.

ثانياً (صعوبة استحصال الحديد من فئزاته، والذي يتطلب درجات عالية من الحرارة وتقنيات معقدة. ومن المحتمل أن يكون بعض صناعات الحديد قد وفدوا إلى مصر في الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والسادس قبل الميلاد.

عصر الحديد:

يقول بعض المؤرخين إن الحيثيين هم الذين اخترعوا صناعة الحديد حول منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. ومن بلاد الحيثيين في الأناضول وصلت تلك الصناعة إلى بلاد الشام ومصر في الجنوب، وإلى بلاد مكدونيا في الغرب. ويقول سارتون: "من الراجح أن الغزاة الدوريين استطاعوا أن يفرضوا سيادتهم على شعوب البحر الإيجي بفضل أسلحتهم وأدواتهم الحديدية".

ومن المفيد أن نذكر بأن العصور التاريخية المتتابعة، وهي الحجري والنحاسي والبرونزي والحديدي، لم تحدث في زمان واحد في جميع الأقاليم التي انتشرت فيها الحضارات القديمة، كما أن ظهور أحد هذه العصور في إقليم معين ربما استمر فيه مدة أطول مما كان عليه في إقليم آخر، وذلك لأسباب عديدة منها:

وستنكلم فيما يلي على مرجعين هامين، ورد فيهما ذكر المعادن، وكانا مصدرين لاستقاء أخبار أمم غابرة، أحدهما كتاب العهد القديم، والثاني ملحمة هوميروس الإلياذة والأوديسة.

لقد شمل كتاب العهد القديم، بأسفاره العديدة (39 سفرًا) وجملة إصحاحاته (929 إصحاحًا) تاريخ البشرية، منذ ظهور آدم عليه السلام، ونوح وإبراهيم الخليل وذريتهما حتى عهد النبي زكريا. وبقي هذا الكتاب المرجع الأول لتاريخ الأمم الغابرة عند المؤمنين بالكتب السماوية. وحينما ظهر المؤرخون الحديثون، وكان أكثرهم من اليهود، استمر بعضهم بالاعتقاد في صحة ما جاء بالتوراة خاصة، أو بكتاب العهد القديم بصورة عامة. وقد شمل اعتقادهم أموراً دينية أو تاريخية أو علمية.

كان إبراهيم الخليل يقطن وعشيرته في أور (الكلدانيين؟)، كما جاء في سفر التكوين، ثم انتقل منها إلى حاران، حيث تزوج من عشيرته (الآراميين)، وبعدها تابع الطريق مع أخيه لوط إلى أرض كنعان (فلسطين).

ويقول الدكتور أحمد سوسة (في كتابه العرب واليهود في التاريخ):

"إن الحضارة الكنعانية تعود إلى عصور موعلة في القدم. فمنذ العصر الحجري الحديث (7-5 آلاف سنة ق.م) بدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدم. فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس اللين، ثم اهتموا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في إنتاج البرونز. وبذلك أصبح استعمال البرونز شائعاً في المدن الكنعانية منذ أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد". ومن المحتمل أن يكون الكنعانيون قد أخذوا صناعة الحديد من الأقوام المجاورة لهم مثل الحثيين".

من المعتقد أن إبراهيم الخليل ظهر في بلاد الرافدين بين القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، وأن موسى ظهر في مصر خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، زمن الملك رمسيس الثاني (1301-1235 ق.م).

وحتى ذلك العصر لم يكن استعمال الحديد شائعاً في وادي النيل وأرض كنعان، وإنما كان النحاس والبرونز هما المستعملان في صنع الأسلحة والأدوات المنزلية. وحينما ظهر الملك داوود وابنه سليمان، وذلك بين القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، بدأت صناعة الحديد بالظهور والانتشار.

وفي كتاب التوراة ما يشير إلى استيلاء الحثيين على القسم الشمالي من أرض كنعان، ذلك لأن إبراهيم الخليل، بعد عودته من مصر، اضطر إلى أن يدفع مبلغاً من الفضة إلى ملك الحثيين، لكي يسمح له بدفن زوجته سارة في قبر يقع في مغارة حبرون (مسجد الخليل حالياً). كما أن عيسو بن إبراهيم اتخذ زوجتين من الحثيين، وهذا ما أغضب أباه وجعله ينصح ابنه الثاني إسحاق بالذهاب إلى بلاد آرام النهرين (حاران) ليتزوج من نسل أخيه ناحور. وأرسل إبراهيم أحد عبيده ليكون واسطة للزواج وأعطاه خزاناً وإسوارين من الذهب ليقدمها هدية للعروس.

وفي سفر الخروج (الإصحاح 17) ورد ذكر حرب جرت بين العماليق وبني إسرائيل في زمن

لشعائر الدين. أما الذهب وكان يضم أساور وخواتم وأقراط وقلائد، أخذها موسى واليعازر، وأتيا بها إلى خيمة الاجتماع.

إن وجود هذه الكمية الكبيرة من الذهب، في مدائن صالح، بالإضافة إلى أنواع المعادن المختلفة، المهمة في الصناعة، يدل على التقدم الحضاري لسكان تلك المنطقة التي تقع شمال الحجاز. علماً بأنه لم يرد في التوراة خبر يبين الطرق التي اتبعت في تصنيع تلك المعادن. وقد ظهر الإسرائيليون في جميع حروبهم كغزاة وقتلة ومخربين للحضارة أكثر منهم بناء ومبشرين.

اليونانيون يقتبسون العلم والصناعة من مصر وبلاد الشام:

إن أقدم مؤلف تاريخي محفوظ حتى الآن، ويتكلم على بلاد اليونان، هو الإلياذة والأوديسة. وتتسب هاتان الملحمتان إلى شاعر ضريح يدعى هوميروس، وقد خلد بهما الحرب التي قامت بين أثينا وطروادة. أما تاريخ هذه الحروب فقد جعلها بعضهم نحو عام 1280 ق.م، وأرجعها بعضهم الآخر إلى عام 1180 ق.م. علماً بأن البناء الفني واللغوي لهاتين الملحمتين، كما يقول المؤرخ سارتون، لم يك من المستطاع قبل القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد. كما أنه يوجد فارق زمني بين الملحمتين لا يقل عن قرن أو أكثر.

لقد بنى هذا المؤرخ استنتاجاته المذكورة على إحصاء قام به، فقد وجد أن الإلياذة تذكر البرونز (14) مرة، مقابل كل مرة يذكر فيها الحديد. أما في الأوديسة فالبرونز يذكر أربع مرات لكل مرة يذكر فيها الحديد، مع العلم أن جذور الملحمتين نبتت في عصر البرونز، ولكن هوميروس في الأوديسة كان أكثر معرفة بالحديد وأقل معرفة بالبرونز من هوميروس الأول. وعلى هذا الأساس فرض سارتون وجود مؤلفين أحدهما للإلياذة ودعاه هوميروس الأول، والآخر ألف الأوديسة ودعاه هوميروس الثاني.

الإلياذة والأوديسة هوميروس:

أسطورتان يونانيتان، غنيتان بالمعلومات التي تدل على حضارة اليونان، وصلتها بالحضارات الشرقية، وخاصة المصرية والكنعانية البابلية. ويقول المؤرخ سارتون "إن الموازنة بين الثقافة الهومييرية وغيرها من الثقافات الشرقية ليست عادلة، لأن العصر الهومييري لم يستمر إلا بضعة قرون قليلة، على حين أن نمو الثقافات الأخرى ظل مستمراً عشرة أمثال مدته".

لقد أنشأ الكريتيون مدناً ومستعمرات كثيرة على السواحل الغربية للأناضول، وظهر فيها علماء وحكماء منهم طاليس المالطي (ت545 ق.م). والذي يقال بأن أصله فينيقي، وتلقى علومه في مصر، وكذلك فيثاغورس الساموسي (ت503 ق.م) الذي زار مصر أيضاً، واطلع على الطرائق الهندسية والمعمارية فيها.

لقد جاء في الإلياذة قصة حرب نشبت حول مدينة إليون، في أرض تسمى طروادة، تقع في

الزاوية الشمالية الغربية من الأناضول.

أما سبب هذه الحرب فهو أن باريس Paris، ابن ملك إليون، قام باختطاف هيلانة زوجة مانيلالوس ملك اسبارطة. ولما كان أغاممنون، ملك مسنيا، أخاً لمانيلالوس، ورئيساً لتحالف ملوك الإخانيين الذين كانوا يحكمون بلاد اليونان، لذلك استنفر الجميع لمعاينة الطرواديين. وقد اشتهر من هؤلاء أوديس (اووليس) الذي حذق فنون الحرب ووضع الحيل، ومنها حصان طروادة. كما اشتهر أخيل كبطل صنديد، ولكن قلبه كان خالياً من الرحمة.

لقد ورد في الإلياذة فقرات عديدة تدل على أنواع المعادن التي عرفها الإغريق، والأدوات والأسلحة التي صنعت منها.

كان الحداد هيفست Hephæstus الإسبارطي الأعرج يقوم بصنع مراحل تحملها ثلاث عجلات ذهبية لتكون في دار الأرباب. كما كان يقوم بصنع التروس والدروع والرائين (ج.ران) لحفظ الساقين. وكان يصنع في الكور برونزاً وقصديراً وذهباً وفضة. كما صنع درعاً وخوذة بحافة من ذهب، وصنع رائين من القصدير.

وصنع ترساً لأخيل Achille بتألف من خمس طبقات، طبقتان من البرونز، وطبقة من الذهب وطبقتان من القصدير. وبعد مقتل بتروكل Patroclus دعا أخيل قومه إلى سباق مركبات وخيول، تكريماً لصديقه الميت، وأحضر من سفنه كثيراً مما يصلح للجوائز، كالمرجل والأباريق المصنوعة من البرونز والحديد.

كما جرى سباق للجري قدمت فيه جوائز للفائزين، كان أولها كأس للمزج يتسع لستة مكابيل، ليس لحسنها مثيل، صنعت في صيدا وجلبها تجار فينيقيون.

وفي مباراة رمي القرص الحديدي قام أخيل، وبيده قرص ثقيل من الحديد وقال: "إن هذا القرص هو لمن يبعد مرماه فيفوق الجميع، أما جائزته فهي كمية من الحديد تكفيه خمسة أعوام للعمل في مزارعه مهما اتسعت".

أما في مباراة رمي السهام فكانت جائزة الأول عشرة فؤوس من الحديد ذات حدين، وجائزة الثاني عشرة فؤوس ذات حد واحد. وفي مباراة رمي الرماح كانت الجائزة رمحاً طويل السنن، ومرجلاً لم تمسه نار، يساوي ثمن ثور.

وبعد مقتل هكتور، ابن الملك بريام Priam ملك طروادة، بيد أخيل الذي احتفظ بجثته، أرسل الإله زوس Zeus رسولاً إلى بريام يقول له: اذهب واحمل معك من الهدايا القيمة مايرضي قلب أخيل، وارجع بجثة ولدك، فأمر بريام أن تهيأ مركبة وتملأ بمجموعة من الدنارات والبسط والجلابيب، مع عشر وزنات من الذهب، ومرجلين بهيين لهما قوائم ثلاث، وأربعة سيوف وكأس ليس لجمالها نظير. ولتعلم مم كانت تصنع تلك المراحل والسيوف، والغالب أنها من البرونز.

أما الأوديسة فهي الملحمة الثانية التي تنسب لهوميروس أيضاً، وفيها وصف لعودة الإغريق إلى

بلادهم، بعد رحلة دامت عشر سنوات، لاقوا خلالها كثيراً من المشاق والأهوال في البر والبحر. وكلمة الأوديسة مشتقة من أوديس (أو عوليس) ملك إيتاكا، وقد خلده هوميروس في ملحمة وجعله خير أبطال الإغريق وأشجعهم.

تزوج أوديس قبل سفره من بلوب، ورزق منها ولداً اسمه تليماك. وحينما عاد أوديس إلى بلده وجد حشداً من الخطاب قد اغتتموا فرصة غيابه، وصغر سن ولده، فأخذوا يبدرون أمواله ويلحون على امرأته للزواج من أحدهم.

ونجد في الأوديسة وصفاً رائعاً لعادات الإغريق وطرائق معيشتهم وآداب سلوكهم. أما الإلياذة فهي الملحمة التي مثلت استعداد الإغريق للحرب، وتصرفهم في القتال حتى نوال النصر.

لقد ورد في الأوديسة عدة فقر فيها ذكر لأنواع المعادن المستعملة منها: أن أوديس كان يدخر في منزله قبل سفره الذهب والبرونز والثياب، إلى جانب زيت الزيتون والنبذ. وأن أغنياء الإغريق كانوا يتناولون النبيذ بكؤوس من الذهب، ويشربون الماء بأباريق من ذهب أيضاً، ويغسلون أيديهم بطست من الفضة.

كانت مصر منذ القدم مصدراً لمعدن الذهب، ويدل على ذلك أن مائلا ملك إسبارطة صادف بطريق الرجعة ربحاً شديدة قرب جزيرة كريت، فسأقت سفينته إلى مصر. وهناك تاه طويلاً بين قوم غرباء اللسان، لكنه استطاع أن يجمع كثيراً من الذهب عن طريق عمله كعبد أسير.

كانت مدينة صيدا مركزاً لصناعة الأدوات الفضية والذهبية المتقنة، وقد تردد ذكرها عدة مرات في الملحمتين، منها أن الملك مائلا، حينما أراد أن يكرم تلماك، قدم له كأساً من الفضة وحواشيها من الذهب، وقال له إن ملك الصيداويين كان قد أهداها إليه.

واشتهر الفينيقيون بصنع سلاسل ذهبية تحمل كرات من الكهربا، وكان خطّاب بلوب يقدمون لها هدايا، منها اثنا عشر مشبكاً ذهباً، واثنتا عشرة قلادة، وسلاسل فيها خرزات من الكهربا. وهي غالباً من صنع الفينيقيين أيضاً.

دراسات تاريخية حديثة ورد فيها ذكر المعادن:

نظمت جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما ندوة عالمية، بتاريخ 17-20/10/1992، حول تاريخ سورية والشرق الأدنى خلال الفترة الممتدة من 3000 إلى 300 سنة قبل الميلاد.

وكان من بين البحوث التي أقيمت موضوع عنوانه: "رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سورية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد"، ألقاه الدكتور فيصل عبد الله، من جامعة دمشق، وجاء فيه مايلي:

كانت مدينة إيمار (مسكنة) المنفذ التجاري لمملكة حلب (بمحاض) على الفرات. وكانت دولة قطنة في منطقة حمص المنافس المزمن لمدينة حلب. وقد توطدت العلاقات بين مملكتي حلب وماري

وضع خريطة للعالم مستنداً إلى أسس انجغرافية الرياضية المبنية على كروية الأرض. ولد هذا العالم في برقة نحو عام 273 ق.م، وتلقى علومه في أثينا، ثم انتقل إلى الاسكندرية بدعوة من بطليموس الثالث، حيث قضى بقية حياته، وتوفي عام 192 ق.م. ترك هذا العالم عدة مؤلفات أهمها (مذكرات جغرافية) استفاد منها العالمان سترابون وبطليموس القلودي. وتتألف هذه المذكرات من ثلاثة أجزاء: الأول: مقدمة تاريخية. والثاني: قياس الأرض والجهات المسكونة منها. والثالث: الخرائط وتقويم البلدان.

استرابون Strabon:

ولد نحو عام 64 ق.م في مدينة أماسيا عاصمة مملكة بنطس الواقعة على البحر الأسود. وهو من أسرة أسبوية يونانية، تعلم في روما وأتم دراسته في الاسكندرية. وتعود شهرته لتأليفه كتابين: الأول مفقود وعنوانه (دراسات تاريخية)، والثاني موجود وهو موسوعة بالجغرافية الطبيعية والبشرية، تعد من أهم ماتركه اليونانيون من تراث علمي، وهي تتألف من (17) جزءاً.

قام استرابون بعدة رحلات شملت كثيراً من بقاع آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا ومصر والحبشة. أما بقية البلاد التي تكلم عليها، وهي الهند وفارس وبين النهرين، فقد كانت مقتبسة من مؤلفات من سبقه من الرحّالين وأصحاب الأخبار.

ألم استرابون بالعلوم الفلكية التي عرفها المصريون والكلدانيون. وذكر أن الفينيقيين من أهل صيدا هم الذين نقلوا مبادئ علم الفلك والحساب إلى بلاد اليونان. عاش استرابون في زمن الامبراطور الروماني أوغسطس، وتكلم على مناجم القضة الموجودة في إقليم لوريون في اليونان، وعلى صناعة الزجاج المتقدمة في الاسكندرية.

ويقول العالم سارتون: إن كتاب استرابون، على الرغم من ضخامته وأهميته، فإن الحكومة ورجال الأعمال في الامبراطورية الرومانية لم يستفيدوا منه. والسبب في ذلك ربما يعود لإخفاء أصحاب هذه الموسوعة النسخ الأولى منها لاستخدامها في أغراضهم الخاصة. وإن المؤرخ يوسفوس كان أول من اطلع على هذا الكتاب، واستفاد منه في القرن الأول للميلاد. بينما لم يعرفه أحد من علماء اليونان ولا بطليموس القلودي و بليني الروماني.

وفي العصر البيزنطي (القرن السادس للميلاد) اكتشف أول مخطوطاته، ثم ظهرت له بعد ذلك ثلاث مخطوطات أخرى باليونانية. ثم ترجمت أجزاءه إلى اللاتينية على دفعات، وأخيراً طبع بكامله باللغتين اليونانية واللاتينية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد.

لقد بقي كتاب استرابون مجهولاً عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين، علماً بأنه ترجم إلى الفرنسية في خمسة مجلدات، بأمر من نابوليون بوناپرت، كما ترجم إلى الإنكليزية، وظهر في ثمانية مجلدات بين عامي (1917-1932)م.

بطليموس القلوذي (Ptolémus Claudius):

فلكي يوناني، ولد في مدينة تدعى (Ptolmais Hermius)، التي كانت في مصر العليا خلال القرن الثاني بعد الميلاد. اشتهر بتأليف كتابين: الأول في الرياضيات وعلم الفلك، عرف باسم الماجسطي (Almagest)، والثاني في وصف الأرض وعرف باسم الجغرافية (Géographie). ترجم الأول إلى العربية في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور ترجمة أبي يحيى البطريق، ثم أعاد نقله فيما بعد الحجاج ابن مطر وغيره.

أما كتاب الجغرافية فقد استخرج منه محمد بن موسى الخوارزمي كتابه المعروف باسم (صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار)، وذلك في خلافة المأمون (196-218هـ) الذي ولاه رئاسة بيت الحكمة.

. ويقول المرحوم الدكتور عمر فروخ إن الجغرافيين العرب صنعوا صورة للأقاليم (خريطة) تظهر عليها المناطق والبلدان، موقعة بأسمائها العربية. غير أن حدود القسم المعمور من الأرض، وكذلك حدود الأقاليم، كانت كلها حسب ماوردت في كتاب المجسطي لبطليموس.

تطور علم الجغرافيا في الدول العربية الإسلامية:

اندفعت القبائل العربية منذ ابتداء الدعوة الإسلامية إلى خارج الجزيرة، فتعرفت بلاداً وأقاليم وشعوباً غريبة عنها، علماً ولغةً وديانةً وغذاءً وملبساً. وعلى الرغم من التفاوت الحضاري بين القبائل العربية وتلك الشعوب، فقد استطاع الإنسان العربي المؤمن أن يسيطر على تلك الشعوب بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يأخذ عنها ويستفيد منها كثيراً من الأمور المادية والعلمية، وأن يمنحها السلام والإيمان بالوحدانية، والعدالة الاجتماعية.

وفي القرن الثاني للهجرة تحولت الدولة الأموية إلى امبراطورية مترامية الأطراف، تضم دويلات عديدة، تخضع لسلطة الخلافة الدينية والزمنية. وأصبح من الواجب أولاً: معرفة حدود تلك الدول وحمايتها من هجمات الأعداء.

ثانياً- التجسس على الأعداء، وتسقط أخبارهم، وذلك كما فعل الرشيد حينما أرسل رجلاً إلى بلاد الروم، كما ذكر ابن حوقل.

ثالثاً- توزيع القوات المسلحة حول المناطق السكنية المكتظة لحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق، وذكر أسماء المدن والقرى والمسافات الفاصلة بينها.

رابعاً- معرفة مصادر المياه من أنهار وينابيع، ومنحدرات السيول، وذلك لتنظيم السقاية والري، وإنشاء السدود عند الحاجة لدرء أخطار الطوفان وتنظيم ري الحقول، وتعداد المحاصيل الزراعية والحيوانية، وأنواع النقود والأوزان المتداولة.

خامساً- تعيين المواقع التي توجد فيها المعادن (المناجم)، للاستفادة من الفلزات والأحجار

في هذا المعنى، رأى ابن النديم نحو خمسمائة ورقة.

لقد انتشرت كتب الصنعة في مصر، منذ القرن الثاني بعد الميلاد، كما ثبت وجود ترجمات سريانية لبعضها في بلاد الشام، تعود للقرن السادس الميلادي. وكانت هذه المؤلفات تضم كثيراً من الأوهام والطلاسم والرموز الغامضة.

وبعد وفاة خالد بن يزيد ظهر عدد من الباحثين العرب والمسلمين، ممن اهتم وألف بهذه الصنعة، وقال بإمكان تحقيق الهدف منها، وذهب آخرون إلى أنها مستحيلة التحقيق، ولا جدوى من ممارستها.

وفي أواسط القرن الثاني للهجرة اشتهر كيميائي آخر مارس هذه الصنعة هو أبو عبد الله جابر بن حيان الكوفي (ت 196هـ/813م). لقد أنكر بعض أهل العلم، وكبار الوراقين، كما يقول ابن النديم، وجود جابر بن حيان. وقال بعضهم إنه إذا كان له حقيقة فإنه لم يصنف إلا كتاب الرحمة، وأن المصنفات الكثيرة التي تنسب إليه قد وضعها بعض الناس ونحلوه إياها.

وهذا القول بعيد عن الواقع، لأن جابر بن حيان كان تلميذاً للإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، وله مصنفات كثيرة ومشهورة. وعلى الرغم من أن أكثرها قد فقد إلا أنه بقي منها نحو ثمانين كتاباً أو رسالة، وهي محفوظة في أشهر مكتبات العالم، ومدونة باللغة العربية أو اللاتينية، أو بكليهما.

لقد ذكر جابر بن حيان في مؤلفاته التجارب والطرائق والقواعد التي استند إليها في بحوثه، بطريقة تتراوح بين الغموض والوضوح. لذلك نصحه أستاذه ومرشده، الإمام جعفر، أن يلجأ إلى إيضاح أفكاره، وهذا ما ذكره في كتابه (الرحمة). أما الإنجازات التي تمت على يد جابر في حقل الكيمياء فمنها تحضير بعض الحموض: حمض الخل (روح الخل) - حمض الكبريت (زيت الزاج) - حمض كلور الماء (روح الملح) - حمض الأزوت (الماء القوي). كما اهتمدى لتحضير الماء الملكي، وهو المذيب العام لجميع المعادن، من مزج الماء القوي مع روح الملح، وهي الطريقة التي لم تزل مستعملة حتى اليوم.

لقد اعتمد جابر على النظرية التي تقول بأن جميع المعادن ناشئة من اتحاد الزئبق مع الكبريت داخل الأرض. وعلى الرغم من بطلان هذه النظرية إلا أن جابر استطاع في أثناء التجارب التي قام بها على هذين العنصرين أن يحصل على أشكال الكبريت المختلفة، وهي الأصفر والأبيض والأحمر. وأن يحصل على الزئبق الأصفر (Shg₂) بطريقة اصطناعية، وأن يحصل أيضاً على أكسيد الزئبق الأحمر. وهي سلسلة من العمليات الكيميائية التي أمكن بها الحصول على مركبات معدنية ذات ألوان مختلفة، مما جعل جابر وغيره من أصحاب الصنعة يتابعون تجاربهم، دون كلال أو ملل، للحصول على الفضة والذهب بطريقة اصطناعية.

ومن أعلام الكيمياء، الذين ظهوروا في العصر العباسي، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. وهو طبيب بيمارستاني، قام بإجراء التجارب العملية للحصول على الأكسير، وهي المادة الأساسية واللازمة لتحويل العناصر الخسيسة إلى ثمينة. كما قام بتأليف عدة كتب وصف فيها تجاربه والأدوات

عشر مركباً معدنياً. أما المعادن فهي: الزئبق، الذهب، الفضة، النحاس، الحديد، الأسرب (إرصاص)، الخارصيني (توتيا). ففي مبحث الزئبق وصف طريقة استحصاله من مناجمه، إذا كان حراً، ووصف طريقة تحضيره من أحجاره الحمر (Slig2) بالتقطير. وفي مبحث الذهب تكلم على جمعه بين الرمال، وتفتيته وفصله عن حبيبات الرمل بوساطة الزئبق.

ويعود الفضل للبيروني بتوضيح طريقة تحضير الفولاذ المصهور بالبواتق، والذي كانت تصنع منه السيوف الدمشقية، وهو يقول بهذا الصدد: "ولمزيد بن علي، الحداد الدمشقي، كتاب في وصف السيوف التي اشتملت رسالة الكندي على أوصافها. ابتدأ العمل بنصب الفولاذ، وصنعة الكور، وعمل البواطق ورسومها، وصفة أطيانها وتطينها. ثم أمر أن يجعل في كل بوظقة خمسة أرتال من نعال الدواب ومساميرها، المعمولة من النرمان، ومن كل واحد من الروسختج والمرقشيتا الذهباني، والمغنيسيا الهشة وزن عشرة دراهم. وتطين البواطق، وتودع الكور، ويملاً فحماً وينفخ عليه بالمنافيخ الرومية، كل منفاخ برجلين، إلى أن تذوب وتطور. وقد أعد له صراً فيها إهليلج وقشر رمان وملح العجين وأصداف اللؤلؤ بالسوية مجرشة، في كل صورة أربعين درهماً، يلقى في كل بوظقة واحدة. ثم ينفخ عليها ساعة نفخاً شديداً بلا رحمة. ثم تترك حتى تبرّد....".

ولكن من الفائدة أن نذكر، عند الكلام على تحضير الحديد والفولاذ، جابر بن حيان. ذلك لأنه سبق البيروني بما يقرب من قرنين، ألف (كتاب الحديد)، وهو مخطوط يوجد منه ثلاث نسخ موزعة في باريس وطهران ودبلن. وفيه وصف لاستخراج الحديد الصب من خاماته، بالإضافة إلى وصف صنع الفولاذ بالصهر داخل البواطق. وقد تكلم على ذلك بإسهاب كل من الأستاذين: الدكتور أحمد يوسف الحسن رئيس جامعة حلب، ومدير معهد التراث العلمي العربي سابقاً، والدكتور عفيف البهنسي المدير العام للمتاحف والآثار في سورية سابقاً.

أما المركبات المعدنية التي ورد ذكرها في كتاب (الجماهر في معرفة الجواهر) للبيروني فهي:

اللازورد: فحمت النحاس الطبيعية Azurite، السنباذج: مسحوق من بلورات الألومين Emcri، الدهنج: فحمت النحاس المائية Malachite، المرداسنج: (أو المرنك) أكسيد الرصاص الأصفر Litharge Pbo، الشاذنج (أو الشاذنة): Hematite Fe₂ O₃، الأسرنج: (أو السيليقون) أكسيد الرصاص الأحمر Minium pb₃ O₄، المغناطيس: Magnetite Fe₃ O₄، الأسفيداج: خلاص الرصاص (الصنعي) - فحمت الرصاص (الطبيعي)، الخماهن: حجر أسود قابل للجلي Chalcopyrite، المرقشيتا Marcassite: كبريت الحديد الطبيعي Fe s₂.

الزجاج: سليكات الصوديوم والبوتاسيوم، البورق: بورات الصوديوم المائية Borax، البلور: الطبيعي (كريستال)، البلور الصناعي الزجاج مع أكسيد الرصاص.

التنكار: بورات الصوديوم الطبيعية Tincal، المينا: تستحصل من معالجة الرمل بأكسيد معدني

Email، نظرون: فحمات الصوديوم المائية Natron الشبه: خليط نحاس مع توتيا أو رصاص Laiton، الاسفيدوري: النحاس الأبيض (خليط النحاس مع الفضة)، الصفرة: خليط نحاس مع قصدير Bronze، التوبال: خبث المعادن الذي يطفو على وجهها، أو يعلق في قبة الكور عند صهرها. الطاليقون: خليط من النحاس مع توبال النحاس فيه سميّة.

مما تقدم يتبين لنا أن علم المعادن والتعدين يعتبران من العلوم المهمة التي مارسها الشعوب التي كانت تقطن في مصر والشام وبلاد الرافدين، منذ أقدم العصور. وبما أن تاريخ التكنولوجيا، الذي يضم هذين العلمين، لم يكتب بصورة علمية واضحة، لأن ذلك يكشف عن أسرار صناعات سعى أصحابها لإخفائها، لذلك قام بعض المستشرقين، منذ قرن ونصف تقريباً بدراسة ونشر بعض المؤلفات العربية التراثية المتعلقة بهذه العلوم. ولكن العمل لما يزل يحتاج لمتابعة وتعمق، علماً بأن الباحث في علم التكنولوجيا يجب أن يتوافر فيه شرطان:

الأول: أن يكون ضليعاً من اللغة العربية وملمّاً باللغات اليونانية والهندية والفارسية.

والثاني: أن يكون اختصاصياً بمادة البحث.

إن كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، تبين بعد طبعه أنه يحوي كثيراً من المصطلحات والجميل المبهمة، والأخطاء الناجمة عن التصحيف والتحريف. لذلك لابد من إعادة النظر فيه، علماً بأن البيروني كان على اطلاع تام على اللغة العربية والفارسية والهندية، ولكنه لم يكن ملمّاً باليونانية.

ملزمة هري كتاب قديم، واقصتها

د. عبد السلام العجيلي

في
نهاية صيف عام 1994 حضرت في باريس مؤتمر اتحاد الأطباء العرب في أوروبا ضيفاً على المؤتمر ومحاضراً فيه. وكان ذلك الحضور فرصة طيبة للتعارف وللقاء زملاء لي من الأطباء العرب المقيمين في عديد من البلدان الأوروبية. من بين هؤلاء كان الدكتور سعيد العزاوي المقيم منذ سنين كثيرة في مدينة دورتمند، في غربي ألمانيا، جراح قلب في مشافئها. وجمع بيني وبين الدكتور سعيد انتماؤنا الفراتي، هو من دير الزور وأنا من الرقة، فساقنا ذلك إلى التحدث عن بلدتي في الماضي والحاضر، قلت له إن الرقة، في الماضي، خربت ولم تعد مسكونة وذلك بعد هجمات المغول عليها. أولى الهجمات كانت لجيوش هولاكو، وأخرها لجيش تيمورلنك. وقد أرخ الأقدمون الهجمات الأخيرة التي دمرت المدينة دماراً كاملاً بكلمة "خراب"، التي تساوي بحساب الجمل 883، وهي السنة الهجرية الموافقة للعام الميلادي 1400، عام تدمير جيش تيمورلنك لها. منذ ذلك الحين هجرت المدينة ولم يعد يقطن فيها ساكن، وظلت هذه حالها ما يقارب خمسة قرون، فلم تستعد وجودها إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

كل هذا قلته لزميلي الدكتور سعيد العزاوي فيما تحدثنا به في جلسائنا في أمسيات انعقاد المؤتمر.

قال لي الدكتور سعيد: هذا صحيح فيما يتعلق بغزوات التتر وتخريبهم الرقة. ولكن مدينتك لم تخنف من الوجود تماماً بعد انسحاب جيوش المغول من الديار الشامية. عندي كتاب لرحالة ألماني يتحدث فيه مؤلفه عن زيارته للرقة في آخر القرن السادس عشر، وفي عام 1575 على التحقيق، ويقول عنها إنها كانت مسكونة في ذلك الحين، وإن حامية تركية كبيرة تسكن فيها وتقوم فيها بمهمة حماية سكانها وبحفظ الأمن في المناطق التي تحيط بها.

هذا الذي سمعته من الدكتور العزاوي كان جديداً علي، إذ ساق إلي معلومات تخالف ما كنت

أحفظه عن تاريخ بلدي. استفهمت منه عن الكتاب الذي يذكره، وعن مؤلفه، وعما إذا كان يمكنني الاطلاع عليه.

أخبرني بأن المؤلف هو الدكتور ليونهارت راوفولف، طبيب رحالة زار بلاد الشرق الأدنى وطبع كتابه عن مشاهداته فيها في عام 1582. كما أخبرني بأنه هو، أعني الدكتور العزاوي، يملك نسخة من ذلك الكتاب في طبيعته النادرة التي يصعب فهم محتواها على القارئ الألماني اليوم. ذلك لأن لغة الكتاب هي اللغة الألمانية التي كان الناس يتكلمونها قبل أربعة قرون. ما قاله لي زميلي كان شيئاً شائعاً لي، ومهماً فوق ذلك.

قلت له هذا، فوعدني بأن يرسل إلي عند عودته إلى دارتموند بصورة للصفحات التي تكلم فيها الدكتور راوفولف عن الرقة وعما رآه فيها وعما جرى له عند مروره بها.

وقد وفي الدكتور سعيد بوعده لي، فجاءتني منه ملزمة مصورة من كتاب الدكتور راوفولف. جاءتني هذه الملزمة بعد أكثر من سنة من تلاقينا في باريس. ولم يكن ذلك عن إهمال منه أو نية خلف في ما وعد، ولكنه شاء أن يصحب الملزمة بترجمة لمحتواها إلى اللغة العربية فاستغرقت هذه الترجمة من وقته ووقت قرينته الألمانية، على ما ذكر لي في رسالته، أكثر من عام لصعوبة فهم ما كتبه الدكتور راوفولف بلغة كانت مستعملة قبل أكثر من أربعمئة عام. وقد صدقته في هذا. إذ إنني حين عرضت الملزمة على العاملين في معهد غوته في دمشق اعتذروا عن عدم تمكنهم من فهم ما تتضمنه لقدم لغتها. وقد استعنت بترجمة الدكتور العزاوي، على عموميتها واختصارها، فاقتبست منها مقاطع ضمنيتها محاضرة ألقيتها في مهرجان الفرات للثقافة والتراث الذي أقيم في بلدي، الرقة، في منتصف أيلول 1998. إلا أنني ظلت حريصاً على أن أحصل على ترجمة كاملة ومفصلة لهذه الملزمة، كمقدمة للبحث في أمر ترجمة كتاب الدكتور راوفولف بكامله.

كان لا بد للمعرفة الكاملة لمضمون هذه الملزمة من أن يترجم ما فيها من لغته القديمة المكتوب بها إلى ألمانية عصرية. وقد تطوعت لأداء هذا سيدة ألمانية هي زوجة قريب لي حين زرت هذا القريب في مدينتها فيرزبورغ، في ألمانيا. وعلى أن هذه السيدة تعمل معلمة للغة في مدارس بلديها فإنها، مثل غيرها، لم تستطع فهم لغة الملزمة فعهدت بها إلى زميل لها، وهو أستاذ جامعي متخصص. قام هذا الأستاذ بالترجمة إلى اللغة الحديثة وتلقيها أنا في العام الفائت. وكنت في هذه الأثناء قد عثرت في أحد المراجع في مكتبي على عنوان كتاب الدكتور راوفولف المستخلصة منه هذه الملزمة. إنه عنوان مكون، على الأسلوب المتبع في تلك الأيام، من عدة سطور تؤول عرضاً لمحتويات الكتاب المعنون بها. ونصه هو الآتي:

(الوصف الحقيقي لرحلة تصلح لتكون في هذا الزمن مدخلاً إلى باء: المشرق التي تضم سورية، وبلاد العرب، وما بين النهرين، وبلاد بابل وآشور، وأرمينية.. إلخ، المتميزة والكثيرة الموارد)

هذه هي الترجمة التقريبية التي قمت أنا بها لعنوان الكتاب. أما الملزمة نفسها فقد تفضل الصديق الكريم المهندس عبد الله الحجار بترجمة محتوياتها من اللغة الألمانية الحديثة إلى لغتنا العربية، وهي ما تتضمنه الصفحات التالية من هذا المقال.

من مدينة الرقة وموقعها والإعلام أيضاً عن انسحاب ملك العربية واتحاده مع الأتراك والتصادم أو "الزعل" الذي حصل لنا مع الجمركي

الفصل الثالث

تقع الرقة وهي مدينة في بلاد الرافدين داخل منطقة الصحراء العربية على نهر الفرات العظيم بين سلسلتي جبال بحيث لا يمكن رؤيتها إلا بالوصول إليها. وفيها قصر يسكنه Sangiachen متصرف تسلم جميع المدينة مع 1200 Spacchis (سباهي) تحت وصاية السلطان التركي.

بنيت هذه المدينة على نحو سيء وحُصيت بسور ضعيف، وقد بنيت بعد سقوط المدينة القديمة التي كانت تليها بالنسبة إلى مجرى النهر. حيث يشاهد سور المدينة المنهار مع بقايا أخرى من السور والأقواس التي ما زالت قائمة. وما زال قائماً بناء عال يقدم إطلالة جيدة (مثل الأشياء المخربة جداً والمستعملة) للتفتيش عن مثله.

وبجعلنا نفترض أنه في الزمن القديم قد سكنها وملكها ملوك وأصحاب أراض وبين هذه الخرائب والمدينة الجديدة ما زال هناك قصر قديم محمي بشكل جيد من الاحتلال التركي لأنه يقع بين فارس والعربية أمام القوى الخارجية لحيماها بالكامل من الأذى.

وفيما عدا ذلك فقد دمرت المدينة القديمة كلها، وسويت بالأرض بحيث لا يوجد مكان أفضل من هنا ليتدرب فيه الأتراك على الركض والطعن كما رأيتهم عدة مرات يتدربون وأنا جالس على السور القديم.

ولمسح هذه المدينة قام التتر مع ملكهم هولاكو Haaleno باحتلالها والسيطرة عليها عام 1260 كما أخذ مدينة حلب وقلعتها بعد ذلك بقليل وذلك بمساندة آيتون Aylon ملك الأرمن ومساعدته. ويعتقد بعضهم أن هذه هي المدينة القديمة المسماة الرها Rhages وسُميت كذلك إديسا Edessa التي أرسل إليها طوبيا الذي يخاف ربه Tobias ابنه من نينوى إلى صديقه الطبيب غابل Gabel ليسترجع النقود التي استعارها منه، لكن هذه المدينة تبعد عن نهر الفرات مسيرة يوم وتقع داخل أرض تكاد يستحيل احتلالها.

بعد أن انتهينا من ذلك ظهر رجل الجمركي (الجمركي) على الحصان على حافة النهر وطلب من

الرجل التركي على السفينة الأخرى تسليم بضاعته وطعامه ومستلزماته Bögen فامتنع هذا بشدة (لأن مثل ذلك لم يحصل من قبل أبداً). فوقعا لذلك في خصام بحيث إنهما شهرا السلاح الواحد أمام الآخر ولما لم يتدخل أحد بينهما لتهدنتهما كادا يصلان إلى التصادم والمعركة المباشرة. لكن الجمركي تصرف بحكمة وأظهر احتراماً لأننا مع بضاعتنا لم نصل بعد إلى Citrahemit (المدينة التي تقع على بعد 4 أيام سفر من نهر دجلة الهائج) ونصل هناك إلى الماء. وهناك كذلك الجمرك يخصه أيضاً ويأخذ أكثر مما يفترض أخذه هنا. كما أن التركي لم يعد يزعجه لأنه لا يحمل معه بالسفر سوى الحبوب فقط ولا يريد الانتظار أطول من ذلك فتركه أخيراً يغادر وجاء الاثنان معاً إلينا لأنه اعتقد أنه معنا كغرباء يستطيع أن يفرض طلباته على نحو أسرع. وهكذا اضطجع بيننا الليلة بكاملها في السفينة (خوفاً من أن نفرغ جزءاً من البضاعة في الطريق أمامه) وشمنا بشدة وقال: لأننا غير مسموح لنا بالسفر في هذه البلاد كأجانب فإنه يجب أن يسجننا لأننا جواسيس مثل الحالات الأخرى السابقة. لذلك عنده أسباب موجبة لمصادرة بضاعتنا وإرسالنا كجاسوسين إلى القسطنطينية لنكون عبيدين لدى سادته النبلاء والسultan. ولما أدركنا قراره غير القانوني ومن ثم ظهر لنا احتياله الذي حاوله معنا لم يجعلنا ذلك نخاف بل أظهرنا جوارتنا التي حصلنا عليها من الباشا والقاضي بطلب وأريناه إياهما. عندما شاهدتهما عرف أنه لا يجرؤ على أن يعارضنا عندها لم يتركننا من دون إظهار سخطة علينا وبدأ فوراً يقاتل جميع التجار في السفينتين ويطلب منهم المال الكثير كرسوم جمركية. وعندما اعترضوا بشدة لم يعط الجمركي أي راحة ولم يقبل أي اقتراح مساومة وعلاوة على ذلك أخرج من السفينة أشجاراً ومجاديف ليمنعنا من متابعة السفر وليعذبنا أكثر. لكن التجار وقد عرفوا جدية الموضوع لم يجزعوا وإنما أرسلوا حالاً في الحادي عشر من أيلول أحد رجالنا مع أحد الزوج إلى كراهيميت Carahemit إلى الباشا الكبير، وكان ابن الباشا محمد، لإعلامه بهذه الأمور والصعوبات.

وعندما أدرك الجمركي ذلك ركب حالاً مع ابنه متوجهين إلى الباشا. وعندما لم يقابل الباشا (الذي كان في ذلك الحين في مكان آخر وهو Gieslet ويبعد مسافة 3 أيام سفر، تمهل وكان رجلنا أيضاً يبحث عنه.

وعاد أدراجه حالاً. ومع أنه لم ير الباشا أعلمنا كذباً أنه بناء على أمر الباشا يجب أن يدفع كل شخص 10 دوقات Ducaten. لكن جماعتنا (Unscrigen) لم يعرفوا أكان ذلك صحيحاً أم لا ولم يتقوا به وقبل أن يدخل الجمركي السفن ويفتشها وضعوا جانباً أفضل وأكبر قسم من البضاعة ودفنوا الكثير في الرمل ليلاً. بحيث إن الأتراك والزواج مروا عدة مرات جينة وذهاباً دون أن ينتبهوا إلى البضاعة المخبأة:

وجاء الجمركي وتابعه في الصباح الباكر وفتش كل شيء بشكل جدي كما لو كان لديه أمر خاص بذلك لكنه، كما كان متوقفاً، لم يجد شيئاً مما كان يتوقعه. وبينما كان يتابع القيام بواجبه بجدية عاد أخيراً رجلنا مع الجواب بأن الباشا مستاء كثيراً لمعارضة الجمركي بشكل غير مسموح به لأوامر وأنظمة سلطانه الكبير وعرقلة سفرنا هذه المدة الطويلة. لذلك كتبت إلى Sangiachen وطلابته

بدفع غرامة وأن يتكفل بعدم توقفنا مدة أطول من ذلك وأن يؤخذ الجمركي كسجين ويرسل إلى القسطنطينية ويقدم للتحقيق معه، مرة كل 15 يوماً على أمل أن يدفع حياته لقاء أعماله الخاطئة.

بينما كنا جالسين أمام مياه نهر بابل كمساجين ننتظر بصبر حل مشكلتنا حدث في أثناء هذه العراقل أن ملك العرب مع أتباعه في 21 أيلول تحرك داخل البلاد بحشد كبير ومن عدة أماكن متجهاً نحو الجنوب ليجد مراعي أفضل للماشية والخيول والحمير والجمال وسواها لتبقى على قيد الحياة، لأنه في بلاده لا يوجد مدن وأسواق وقرى كثيرة ليستطيع أن يسكن مثلنا بمنازل ثابتة. وليس لديهم زراعة وتجارة وهم مسرورون عندما يكون لديهم حيوانات كثيرة ومراعٍ جيدة لترعى فيها. وعندما يصلون إلى مكان مستنقع صغير ينمو فيه بعض العشب والحشائش ينصبون خيامهم ويبقون هناك إلى أن يحصل نقص في الكلأ فيجبرون على الرحيل مفتشين عن مكان آخر. وعندما يتركون المكان يأخذون معهم عمالهم وخدمهم وحيواناتهم وجميع أغراضهم. كما استطعت أن أراقبهم هذه المرة. وعندما اقتربت عدة مجموعات كبيرة أغلق الأتراك مدينتهم أربعة أيام أمامهم حتى مر الجميع، وينسحبون على الخيل مع الأكل والعتاد في الأرض وعلى الجمال كذلك وبأخذون معهم منها كميات كبيرة فمثلاً عندما يتحرك الملك هنا وهناك (كما يقول بعضهم) يأخذ معه 150000 جمل. وأنا نفسي شاهدت عدة مرات مسيرة 3-4 آلاف جمل وهي حيوانات قوية وصبورة وتحمل حمولات ثقيلة، ودرجات حرارة عالية تبقى من دون ماء للشرب تتحمل 4 أيام. ويترك حراً (فارغاً) ما بين ساقبها من الأمام والخلف بحيث إن من يسير خلفها في القافلة يجب أن ينتبه كي لا "يتطرش" ويتوسخ، وخيولهم أصيلة وسريعة ومحبة للعمل وتعطى يومياً علفاً للأكل مرة واحدة فقط (على الرغم من أنها محملة تسير طوال اليوم في الصحراء الواسعة).

ويزيلون عادة عنها شعر اللبدة (حول الرقبة) والذنب لتكون عارية تماماً وسطح أقدامها الحافية يبدو مماثلاً لذنب الأسد. أما نساؤهم فيجلسن على حمير صغيرة وكذلك على الجمال العالية مع أولادهن بصناديق كل ثلاثة أو أربعة معاً. كما يعتنين بأنفسهن فإنهن سمرأوات بلون البشرة مثل غجرياتنا تقريباً وأكثر من ربعهن سوداوات. هذا الاختلاف بلون البشرة خاصة يجعلهم يتركون في أثناء تجوالهم أحياناً في الأماكن التي يعيش فيها السود بعض السوداوات ويستبدلون بهن أخريات. ويعيش ملك العرب دائماً في الفلاة وضمن حراسة جيدة ولا يقيم أبداً في مكان مغلق. ومن المؤسف جداً أنه مع ابنه دائماً يحوّل مثل التتر بحيث إن المرء لا يعرف أحياناً أين يلقاه.

في الصيف يتوجه أكثر نحو الشمال ليتجنب الحرارة الشديدة كما أنه يعود في الشتاء نحو الجنوب ليهرب من البرد ول يحصل على شروط إقامة أفضل له ولجماعته. وأدى هذا أحياناً إلى قرب التصادم بين العرب والأتراك إذ إن هناك خصومات بين القوتين أدت إلى القتال والخسائر فيما بينهما.

وعلى الرغم من ذلك (وحسب اعتقادي) يجب عليهما أن يبقيا متحدين ومتفقين ومن الثابت بشكل خاص: إذا هاجم عدو تركيا الكبرى يجب على العرب أن يكونوا حليفاً لها ويساندوها. وكذلك يعتبر التركي ملك العرب كابن عم له ويبرهن أنه صديق جيد يدفع 60000 دوقات (دوقية) سنوياً كمرتّب

مستديرة أو مستريجة .

وما يزيد على نصفها أزهار بشكل نجمة بيضاء مع 6 أوراق مدببة من نوع Ornithogali واحد من سوقها خاصة ولم أر أطرافها وجذورها صغيرة وليقية بعضها قليل القساوة وجاف نسبياً. وكل ما تبع كان شبيهاً بالـ Polycnemo Dioscorca أما إذا كان ذلك يتحمل ويبقى فسوف أسأل العلماء وليحكموا على ذلك ما عدا ذلك شاهدت في الذهاب أشجار الطّرفاء Tamariskenbäumen وبعداً نوعاً من Agni casti تشبه الأخرى تماماً لكن أصغر كثيراً وليس لها سوى 3 أوراق دبقة قوية Kleeblitter وأهمها ومعظمها يفوح منه رائحة هو Qalegn ويسمى لدينا Geissraute (نبات التيس) وهو هنا ينمو عالياً بحيث إنني بين الحين والآخر لا أرى سواه وأنا أنظر على مدى أميال من الطريق.

سكان سلسلة الجبال والصحراء الكبرى

من خلال مسيرتنا مع عاداتهم القديمة وحياة الفاقة والتعب التي يحيونها

الفصل الرابع

بأمر الباشا القوي والطيب وهو ابن محمد باشا حررنا أخيراً من حجزنا الطويل وغادرنا ظهر 27 أيلول. وسفرنا هو عبر الصحراء الواسعة حيث، وعلى مدى عدة أيام سفر، لم نشاهد ما يلتفت النظر سوى أكواخ صغيرة مبنية بفروع الشجر ومغطاة بقماش خشن حيث يقيم الزنوج مع جميع أدواتهم المنزلية يتنقلون تحت حرارة الشمس اللاهية والمطر والعجاج (الغبار) taubefall والقوي مما جعلنا ندهش كيف يستطيع أناس فقراء مع كثير من الأطفال أن يعيشوا في المناطق الرملية الجافة الخالية من أي شيء يساعد على العيش. لذلك فإن الشعب الفقير قليل اللباس وشديد الجوع غالباً ما يلمحنا من بعيد فيتوجه نحو الماء ويسبح نحونا ليظفر بقطعة خبز. وعندما نرمي إليه ملء قبضتنا من الخبز يتخاطفها الكثيرون بجوع شديد وكذلك السمك ويأكلونها. ويقوم بعضهم بجمع كسرات الخبز بسرعة ويضعونها في منديل (وهو مربوط مع القميص على الرأس بشكل مضحك) ويسحبونه وراءهم. وبعد سفر طويل في مناطق الصحراء وصلنا أخيراً إلى جبل عال خشن وغير مضياف حيث لا يشاهد لا مزارع ولا مروج لا بيت أو قصر أو طريق أو ممر كما لو أن الشعب هناك ليس لديه للسكن سوى الأكواخ والخيام كما هو الحال في الصحراء. فالجفاف الكبير والقحط بسبب بقائهم في الجبال ليس طويلاً في مكان محدد لم يؤمن لهم سكناً ثابتاً وهو يتجولون هنا وهناك ويهاجمون وينهبون القوافل ويساعدون أنفسهم كما تعلمون. وهذه الجبال كما أعلمت تمتد حتى نهر الأردن والبحر الميت والبحر الأحمر حيث جبل سيناء وحروب وغيرها حيث تقع بترا التي سماها النبي أشعياً كذلك. إن العرب الساكنين في هذه الصحراء وخارجها معروفون جداً في رمي القوس والحراب المصنوعة من القصب ويوجد منهم عدد كبير يتقاتلون في الصحراء وهم شعب قديم ينحدر من أبناء اسماعيل خاصة ومن أول أولاده نبيوط Nabaioth ومنذ زمنه سمي المتخاصمون الأنباط Nabathäer

والأرض ولاية الأنباط كما شهد المؤرخ يوسيفوس في الكتاب الأول الفصل 21 بالكلمات التالية: وأولاد إسماعيل اثنا عشر الذين ولدتهم امرأة مصرية مثل أمه هاجر Hager (وسميت نسبة لها كذلك هاجر كما نرى في الكتاب الأول من الأخبار Chronik الفصل السادس) المولودة بمصر وكان لهم الأرض من نهر الفرات حتى البحر الأحمر احتلوها وسموها ولاية الأنباط. ومن هؤلاء يمكن أن نعد كذلك المديانيين Madianiter وقد سمي أراضيهم المؤرخ بلينيوس Plinius باسم Schacnitit (إذ هناك عدا الأكواخ والخيام المذكورة لا يوجد أي بيوت للسكن يقيم فيها السكان).

ضمن هذه الشروط يمكن قبول أن النبي أشعيا في الفصل 60 وكذلك داوود في مزموره رقم 120 يتكلمان عن هذا الشعب، ويذكر خاصة أكواخ كيدار Kedar الذي يقوم حوله ريف يسكنه شعب يقيم في أكواخ وهو من نسل قيدار بن إسماعيل الذي أبوه إبراهيم وكان قد أرسل مع أمه في الصحراء. وهذا يسمي: يؤلمني أن أكون غريباً تحت مسك Mesch ويجب أن أسكن تحت سقف أكواخ كيدار. في زمننا هذا يحسب العرب مع شعوب أخرى Sarazeren. ازدادوا كثيراً وانتشروا في كل مكان. وكانوا أيام داوود أقوياء لذلك يصلي النبي القديس بحرارة وجدية (كما يقرأ في المزمور 38): إن السيد (الرب) مثل هذا الخيال يقود رماحاً قصبية وهذا يعني أن الأعداء الذين يقاومون بالجيش والسلاح إقامة كنيسته ورعيته المحبوبة سوف يعاقبهم ويبددهم.

وأعود الآن إلى عملي السابق، سألنا العرب في رحلتنا أين نجد ملككم أو أين يمكن أن نلقاه إذ إن رئيسنا (Patron) تعب كثيراً من كثرة السؤال والكلام. وهنا تظهر الطاعة الكبرى والانتباه الكبير للمروسين (الأتباع) نحو سادتهم. ولما اعتادوا مشاهدتنا كأجانب ومعرفتنا كغرباء غيرنا وضع غطاء الرأس ووضعناه حسب طريقتهم مما جعلنا بشكل رئيسي نستظل من حرارة الشمس الالهية (والتي كانت هنا غير قليلة). ومع ذلك عندما يريد أي شخص الذهاب إلى ملكه ليقدم له رداء أو لتسلم جواز أو لإعلامه بأمر فإنه من السهل القيام به خلال السفر ولا بد من إيجاده بعد مدة (قريباً) وهذا اللقاء تحت الأتراك ليس عظيماً إذ يمكن تنفيذه باسم السلطان التركي إذا رضي المرء بذلك وقد لا يكونون مستعدين لذلك، إلا إذا كان لهم مصلحة أو منفعة أيضاً. وهم يذكرون بالعرفان دائماً سلطانهم الكبير ولا يقولون شيئاً عنه وعن مملكتهم إلا بفخر وشجاعة وخاصة عندما يتربعون القوة العظمى والاعتبار وتوسيع المملكة عندها يشعرون هم أنفسهم بالمجد والافتخار. خلال سفرنا في مناطق الصحراء لم نستهلك كلانا كثيراً من الطعام لأن المدن والقرى تتباعد بعضها عن بعض إذ إن المرء لا يستطيع الوصول إلى حاجته اليومية بسرعة (كما هو الحال لدينا على نهر الدانوب والراين) ويمكنه الاستراحة بها حسب رغبته. وكان علينا أن نساعد أنفسنا ببعض الطعام مثل اللبن المكثف والجبن والفاكهة والعسل... إلخ وبعض الخبز. العسل جيد وبلون أبيض ونأخذ منه معنا في السفر مع القوافل وفي السفن وكذلك قناني جلدية ملأى نتركها بأوعية صغيرة (نأكلها مع الكعك اليابس) ونضع معها بعض قطع زبدة. إن هذا الطعام (الذي طالما تناولناه غالباً) ذكرني ببوحنا الم معدان السابق للسيد المسيح والذي أكل إلى جانب الأطعمة الأخرى في الصحراء العسل وكان ذلك يساعده. ولكننا أردنا

شينا ساخناً وحياة أفضل. وأرسلنا بعض العمال (بعدما قام رئيسنا بتوظيفهم) لجلب الخشب وآخرين لحفر حفرة في الشاطئ لتستعمل كفرن لطبخ الطعام. وتناول بعضهم طعاماً من الرز والآخرين من الحبوب المطبوخة كما ذكر أعلاه وكل حسب حاجته. وإذا أرادوا أكل خبز طازج بدلاً من ذلك واحتاجوا إلى أكل الكعك اليابس كانوا يخلطون الماء والطحين ليصبح عجينةً ويعودونه على شكل كاتو بسماكة إصبع ويوضع على النار في الفرن ليسخن ويفرش الفحم كله على الرماد ويترك حتى ينضج. مثل هذه الطبخات كانت جيدة المذاق وطيبة للأكل، وبعض العرب كان لديهم في خيامهم صحن واسعة نحاسية أو من الحجر لصنع الكاتو.

في اليوم الرابع وكان آخر شهر أيلول وصلنا ظهراً إلى آخر الجبل حيث يوجد خارجه وعلى جبل مرتفع قصر عظيم وحصين مبني على شكل مثلث يسميه الأهالي زليية Selby. رأسان من المثلث يصلان حتى النهر ويمتد الثالث في أعلى الجبل ويبدو بموقعه وكأنه بادن Baden في سويسرا، وعلى الرغم من أنه حالياً مهدم فإنه بسوره ومبانيه الضخمة في الأعلى وفي الطرف المقابل للجبل وعلى طول النهر محصن في اليابسة وقرب الماء والمرور من خلال الأبراج مسدود. كما يقوم في الخارج من الجهة التي يأتي منها القادمون من طرف الجبل بعض بيوت صغيرة أو أبراج صغيرة للحراسة يمكن أن يقدم في كل منها ثلاثة إلى أربعة جنود ويسكنها الآن الطيور والحيوانات البرية. ويشاهد أحياناً في النهر العديد من الطيور مثل مالك الحزين والبط بأحجام كبيرة وجميلة الألوان وأنواع أخرى بيض كلها (مثل بجع أرسطو ويسميه بعضهم أونوكروتالي Onocrotali) وكبيرة مثل البجعيات Schwäne التي تذكر بشكل خاص بالنبي القديس زفانيا Zephania في ذلك الفصل الذي وجهه وفرض فيه عقاباً على أهل نينوى والآشوريين والزنج. كما شوهدت طيور سود برقاب طويلة تشبه ما وجدته فيما بعد في رحلتي إلى أرض الميعاد وخاصة قرب أكون Acon وكانت تجلس أفواجا على صخور ونوات البحر وقد عرفها من بعد واعتبرتها نوعاً من نسور البحيرة Secadlern التي تتغذى بالسمك أكثر من الحيوانات الأخرى. وعلى مسافة نصف ميل من الفرات يقع حصن آخر يدعى زليية Subiam Selby أسفل Selby في أعلى شاطئ النهر لذلك لم نتمكن من تمييزها جيداً من الأسفل.

من هذين الحصنين وكيفية حصارهما والاستيلاء عليهما وكذلك عن ملوك العرب وحكمهم وغناهم.. الخ.

كنت أتمنى الحصول على معلومات أكثر لكن اللغة الغربية التي لم أكن أجيدها عاقبتني كثيراً. وإذا كان واقع الحال أنني أفهم نسبياً وأستطيع أن أستعمل عن شيء فلا يتم ذلك من دون خطر كبير كي لا أعد جاسوساً وأوقف (أسجن) مثل الغريب الذي يتعرض سريعاً إلى الشبهة كالأشخاص الذين يتاجرون ويتجولون يومياً عندهم ويكابدون مشقات وأضراراً كبيرة. وخارج الجبل في مقدمة النهر حيث نشاهد حقولاً مزروعة ومنازل للعرب أقام راعينا (معلمنا) Patron مساءً قرب قرية واقعة خلف مرتفع ليزودنا باللحم والبطيخ الهندي (الذي جلب منه إلينا الكثير على الشاطئ) لمتابعة سفرنا. وقد ظهر الآن أنه بينما كان أحد الجنود الأتراك في منتصف الليل ذاهباً إلى النهر لقضاء حاجته تسال

بالإضافة إلى أنه حسب أقوالهم كان المطر يهطل مرتين أو ثلاثاً في العام فتتمو كمية كافية من الذرة. وبعد أن عملت جماعتنا أكثر من ساعة مع الآخرين وعامت السفينة ثانية فوق الماء عادوا إلينا وغادروا لنصل في المساء إلى الدير Deer . ولما صادفنا أماناً بعض الصخور الصخرية تجعل السفر أماناً خطراً جاعنا بعض عمال السفن من المدينة ليساعدونا في رؤية المجرى الصحيح للسفر ويوصلونا بسرور وبسلام.

مدينة الدير Deer ليست كبيرة وتتبع الأتراك وتقع على مرتفع فيه بيوت عديدة (بعضها مجمع بدا لنا حين وصولنا) وهو محاط بسور سيء وقبور. واعتقدنا أننا سنحل أمور الجمرك قريباً مع أرمين Armin لمتابعة السفر، لكنه لم يكن في البيت وكان علينا أن ننتظره ثلاثة أيام. خلال ذلك عقدنا علاقات معرفة مع السكان الذين كان بعضهم طويلاً وقوياً ولون بشرته أبيض ومؤدباً بتصرفاته كالآخرين. كانوا يأتون إلينا غالباً ليكلمونا بمودة فوجدنا بهم اختلافاً كبيراً عن الآخرين. وكذلك كان الأمر مع أرمين Armin الذي بعد عودته أكرمنا بصينية (صفحة) كبيرة ملأى باللحم والحلوى الطيبة ومزينة ببصل الصابون (نوع نبات) Seifenknolle (كما جرت العادة في بلادهم) وقد اتخذ مرافقوه بعض الأقواس المصنوعة بورق أبيض حملوها بسرور وبإعجاب وبدوا يضحكون (مثل الأولاد الصغار عندما يهدون شيئاً نادراً).

كانت الناحية (المنطقة) خصبة نوعاً ما بالحبوب والذرة الهندية والقطن... الخ. وكان لديهم قرب النهر حدائق عشبية مع قليل من أعشاب الحديقة والفواكه مثل Cauliflor كاوليفلور وسواها وخاصة Citrullis قرع وخيار و angurion ويدعونه بطيخاً Batticac وعندهم منه الكثير بحيث يمكن شراء 40 قطعة كبيرة نسبياً مقابل 1/ أسبرن Aspren أو 2/ كرويسر Kreuzer (الذي 3 منه تساوي 2 مدين Medin). وهناك أشجار نخيل عالية وليمون Limonen وأشجار الليمون وأشجار أخرى لم أرها عن بعد لأتمكن من معرفتها.

ت: المهندس عبد الله حجار

كان أول بواعث اهتمامي بكتاب الدكتور راوفولف أو بهذه الملزمة من الكتاب هو، ما أسلفت القول، ما يحمله من تصحيح لمسلمات وقرت في ذهني من أن الرقة، بلدي، كانت هجرت تماماً منذ آخر غزوات التتر لها في نهاية القرن الميلادي الرابع عشر، فأقفرت من كل ساكن وامتد خرابها وإقارها حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. فما هو ذا طبيب ألماني يسجل لنا شهادته في ما رآه بعينه من أنه كان في المدينة، في عام 1575، حامية مؤلفة من ألف ومائتي جندي تركي، وأنه كان فيها حاكم سماه متصرفاً، وكان فيها مصلحة ضرائب ومكوس. هذا يعني أن المدينة كانت مسكونة بمواطنين وتدار بموظفين مختلفي المهمات والرتب. صحيح أنه يتحدث عن خرابها وأسبابه وعن أطلال مبانيها القديمة وتهدم سورها، ولكنه يورد ما يدل على أن هذا السور كانت له أبواب تغلق عند مرور قبائل البدو المحاربين، خوفاً من اعتداءاتهم على البلد، وذلك ريثما تمر قوافلهم في اتجاهها من سهوب الجزيرة إلى بادية الشامية.

قلت إن ذلك كان الباعث الأول لاهتمامي بكتاب الدكتور رافولف، ولكنني حين قرأت ترجمة الملزمة بكاملها وجدت أنها تحمل إلينا، أنا وكل مهتم بتاريخ بلاده، وبالتاريخ بصورة عامة، معلومات طريفة وجديدة عن حقبة من الزمن قلت معارفنا عنها، كما إنني قدرت أن ما سجله الدكتور رافولف في فصول كتابه الأخرى له قيمته العلمية الكبيرة وجدير بأن يلقى الضوء على أحوال بلادنا التي سماها المؤلف بلاد المشرق Morgenländer في الزمن الذي زارها فيه. لا سيما أن هذا الكتاب بعيد على ما يبدو عن أيدي المؤرخين المعاصرين، فظلت معلوماته محصورة في طبعته الأولى التي صدرت في عام 1582، بعد نحو من قرن من اختراع غوتنبرغ للطباعة، في حروف غوطية عسيرة على القراءة وبلغة جرمانية قديمة عسيرة على الفهم.

ولا بد لي هنا من الوقوف عند سيرة حياة الدكتور رافولف نفسه، كما بلغ إليها علمي، إنه طبيب وعالم نبات ورجل دين. ولد في ألمانيا عام 1540، في مدينة أوغسبرغ. وقد سافر إلى المشرق في عام 1574 في رحلة تولى تمويلها صديق له نبيل يحمل لقب "غراف". في هذه الرحلة أقام في حلب تسعة شهور، ثم تابع سفره عن طريق الفرات، كما جاء في ما قرأناه له، إلى بغداد ماراً بالرقّة وعانة، متذكراً ومدعياً أنه رجل أعمال أرمني. وجاءه خبر وفاة صديقه ومموله فعاد إلى حلب عن طريق الموصل ثم الأنابض، ومن حلب قصد طرابلس الشام فأقام فيها ثلاث سنوات مارس خلالها طبه في هذه المدينة. حج إلى القدس ثم عاد إلى أوغسبورغ، وتطوع في الحرب المجرية التركية، ومات بالكوليرا على الحدود المجرية في عام 1596.

وإلى عالم النبات هذا، الدكتور رافولف، ينسب في علم النبات جنس الراوفولفيات *Rauvolfia*، وهي أشجار يستخلص من جذور بعض فصائلها شبه القلوي المدعو ريزربين الذي استخدم، ولا يزال يستخدم، كخافض للضغط الشرياني وكمهدئ نفسي. وبهذا الوصف، وصف عالم النبات، نراه يقف عند النباتات التي يراها في رحلته ويسميتها بأسمائها اللاتينية أو الألمانية. كما إنه، بوصفه رجل دين، نراه يعتمد في معلوماته التاريخية على قراءاته في التوراة في أسفارها المختلفة.

وبعد هذا الذي نقلته وتحدثت به عن الكتاب وعن مؤلفه لا بد لي من الإقرار بأنني طرقت في هذا مجالاً أنا قليل الطروق له في العادة فيما أكتبه. أعني به مجال الأبحاث التاريخية ومجال المصادر المهملة والمجهولة، وعرض هذه المصادر ثم التعليق عليها، إنه مجال عدتي فيه قليلة ومقاربتني له أقل. لذلك فإني لا أستغرب إذا اكتشف واحد من قرائي خطأ في أحكامي أو نقصاً في معلوماتي. عذري في هذا أن دافعي الأول فيما تصديت له هو، كما سبق وقلت، كان رغبتني في تصحيح أفكار السابغة عن تاريخ بلدي، إلى جانب الفضول الذي أعهده في نفسي والذي يجعلني أسعى إلى المعرفة في مظانها مهما قصرت أدواتي في محاولة بلوغها. وإذا كنت أحرزت شيئاً مما سعيت إليه فإني مدين في ذلك إلى الأصدقاء الذين مهدوا لي السبيل إلى بلوغه.

أنا مدين في ذلك للسيدة كريستا صطاف، من فيرزبورغ، التي سعت وتوقفت في نقل محتوى الملزمة من لغة الشعوب الجرمانية في القرن السادس عشر إلى لغة ألمانية معاصرة. ومدين أيضاً

للصديق المهندس عبد الله الحجار الذي تولى ترجمة محتوى الملزمة في شكله الجديد إلى اللغة العربية. وقد قدرت كل التقدير جهده في ترجمة أقوال ليونهارت راوفولف، لأن القراء الألمان أنفسهم أقرّوا لي بعسر فهم تلك الأقوال حتى في صيغتها المعاصرة. يرجع ذلك إلى تباعد زمننا عن الزمن الذي كتبت فيه أصولها، وإلى تغير مصطلحاتها بل إلى انقراض كثير منها من اللغة الألمانية المحكية اليوم. وأخيراً، بل أولاً وقبل كل شيء، أنا مدين للزميل والصديق الكريم الدكتور سعيد العزاوي الذي كان وراء كل هذا العمل بتعريفي بكتاب الدكتور راوفولف وإهدائي صورة هذه الملزمة منه.

وعن فضل الزميل الدكتور العزاوي في تزويده إياي بالملزمة مصحوبة بترجمتها الأولية أضيف أنه وعدني بأن يضع تحت تصرفي كامل الكتاب في طبعته القديمة، طبعة عام 1582. إلا أنه ربط وعده الثمين هذا بشرط أخشى أن تحول ظروف حياتي المتقلبة من التزامه (به). لقد اشترط هذا الأخ الكريم لقاء ذلك أن أقبل دعوته لقضاء شهر كامل ضيفاً عليه في منزله العامر في مدينة دورتمند!... دعوة كريمة ومغرية. ولكن أين الوقت وأين إمكانية التحرر من المشاغل والمشكلات في هذه الأيام؟! وإلا فليس أحب إلى القلب من قبول هذه الدعوة، ولا أحب للفكر من الحصول على كتاب الدكتور راوفولف كاملاً، لعلّي أعهد به إلى من هو أقدر مني على إعداده للترجمة ثم للنشر.

بعض الناس، على ما ورد في الحديث الشريف، يجرّون إلى الجنة بالسلاسل، وأخشى أني أنا كاتب هذه السطور، في هذا الأمر، من أولئك الناس، أخشى ذلك وأتمناه في الوقت نفسه فلعل الأيام تعينني على قبول دعوة الدكتور سعيد، فأكسب الغبطة والسرور لنفسي، وأكسب لمعرفة تاريخ بعض بقاء وطننا صفحات كانت قبل اليوم مجهولة ومنسية.



يشت المصطلحات هي وحدها التي نسب عمر فهم ترجمة ما نقلناه من كتاب الدكتور راوفولف. فأسماء الأشخاص، من تاريخيين ومعاصرين لمتأخرين، كتبت بصورة قد تضل في معرفة الإنسان المسي. كما أن الأسماء الجغرافية كثير تسألنا عن المواقع التي تمسها. نستطيع القول إن نهر بايل المذكور هنا هو نهر الفرات، وإن مدينة الذير المذكورة هي دير الزور الحالية. ولكن أين تقع مدينة Carahemit وإمكان الذي ورد باسمه Giselet؟ ولاحظ أن ما يسميه الدكتور راوفولف "زلية Selby" ينطق على الخراب التي اسمها اليوم "حلبة". بينما يطلق اسم "زلية" اليوم على ما سماه هو "أسفل زلية Subiam Selby". مع العلم أن الناس في وادي الفرات، في هذا الزمن، يسمعون الموقعين في التسمية حسب يتحدثون عنها فيقولون: حلبة وزلية.

أما عن أسماء المسائل التي وردت في صفحات الملزمة فإنها تحتاج إلى دراسة خاصة ومقارنة. يشت الدكتور راوفولف أحياناً أسماء عربية نعت ما وقعت عليه عليه من أنواع النبات، مثل الشوك والغرب. ولكننا لم نعثر في المعجمات النباتية التي بين أيدينا على الأسماء الأخرى من لاتينية وأما ما أورده هو. ولا يستغرب هذا، فهذه المعجمات جد حديثة في تأليفها بالنسبة إلى الزمن الذي قام فيه الدكتور ليونهارت راوفولف برحلته.

كل هذا يعني أن كتاب هذا الطبيب الألماني انرجاله، إذ قدر له أن يترجم وينشر، يحتاج في إصداره إلى تضاعف اختصاصيين عذق، من مؤرخ وجغرافي وعالم نبات، ينصح مقروءاً مفهوماً، ويتحقق الفائدة المرجوة منه، وهي فائدة لا نشك في كونها فائدة كبيرة الأهمية وعالية القيمة.

مع الدكتور شوقي ضيف

في مقدمة الرد على النحاة

د. جميل علوش

قَدَم
الدكتور شوقي ضيف لكتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي
بمقدمة ضافية جعلها مدخلاً للكتاب، تحدث فيها عن عصر الكتاب
ومؤلفه ثم وصف نسخة الكتاب وبحث في تحقيق نسبتها إلى المؤلف.
وأورد بعض الآراء البارزة التي قام عليها الكتاب، وعلى رأسها إلغاء نظرية العامل
والعلل الثواني والثالث والقياس والتمازين غير العملية مما أطلان في شرحه وتروجه
صاحب كتاب الرد على النحاة، كما أطلان الدكتور ضيف في شرحه لآراء المؤلف
وتوضيحه لها والإشادة بما توسم فيها من محاسن ومناقب.

ولقد عرض ذلك كله بطريقة توحى أنه لم يقرأ كتاباً نحوياً من قبل ولم يمتلئ ذهنه بشيء من
آراء النحاة ومذاهبهم ونظرياتهم. فقد تقبل كل ما كتبه ابن مضاء في الموضوع واعتبره كلاماً منزلاً
من السماء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم يوجه إليه أي اعتراض ولم يسجل عليه أي
مأخذ ولم يحاسبه على أية هفوة بل نظر إلى ما كتبه في الرد على النحاة وكأنه الحقيقة الناصعة
والحجة الدامغة لا ينفذ إليه الخطأ ولا يتسرب إليه الوهم.

ليس هذا فحسب بل تجاوز ابن مضاء إلى مواقف لا يقبلها ابن مضاء ولا غيره من يعدون في
النحاة المترخصين المتهاونين بلة المتشدددين المحافظين. وأنكى من ذلك كله أنه جعل من نظرية ابن
مضاء مدخلاً لتسهيل النحو ولنظرية بقي يدعو إليها ويبشر بها طول حياته بحيث كتب حولها كتاباً
مستقلاً أصدره قبل بضع سنوات وأطلق عليه اسم "تجديد النحو" وقد تحدثت عن هذا الكتاب في غير
هذا الموضع وبينت مواطن الضعف والتقصير فيه وتخلخل الأساس الذي قام عليه.

ولما كان كتاب الرد على النحاة لابن مضاء هو الشرارة التي أشعلت في ذهن الدكتور ضيف
فكرة تسهيل النحو، وحفرته لأن يكون منها نظرية يدعو لها ويجاهر بها ويعتدّها السبيل الوحيد
لتسهيل النحو وتخليص النشء - على زعمه - من عقده وإشكالاته، فقد أحببت أن أعود إلى مقدمة ذلك

الكتاب وما استوحاه من تلك المقدمة من آراء وتخريجات تجاوزت ما رسمه ابن مضاء وما دعا إليه. ويؤخذ على الدكتور ضيف من ناحية عامة ما يلي:

أولاً- أنه كما سبق أن ذكرت لم يجد في كتاب "الرد على النحاة" على ما فيه من عنف وتطرف شيئاً يستحق المحاسبة أو النقد. فقد قبله على علاته وجعله له منهجاً وإماماً.

ثانياً- أنه لم يقف عندما رسمه ابن مضاء في كتاب "الرد على النحاة" بل تجاوزه إلى آراء ومواقف تعدّ خروجاً على النحو وقدحاً في المنطق الذي قام عليه.

ثالثاً- أنه جعل التسهيل غاية الأساس في كتابه هذا الصدد. ومع أن التسهيل غاية مهمة في النحو المدرسي التعليمي، فإنه من الجدير بالتنبيه أن التسهيل ينبغي ألا يتنافض مع ما ثبت ورسخ من أصول النحو وقواعده.

ولأنني مهتم أصلاً بموضوع النحو فسأغض البصر عما كتبه شوقي ضيف عن المخطوطة والمؤلف وآراء المؤلف البارزة في ذلك الكتاب. فكل ما يهمني هنا هو أن أناقش شوقي ضيف في عدد من الاقتراحات والأفكار التي قدّمها بحجة أنها تسهم في تسهيل النحو وتقريبه من عقول الطلبة وأفهامهم. وهذه نماذج من تلك الآراء والمقترحات:

أولاً- اقترح أن يعتبر الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد في مثل قولنا: هل تسافرن؟ فعلاً مضارعاً منصوباً لا فرق بينه وبين قولنا: لن أسافر على اعتبار أن كلا منهما ينتهي براء مفتوحة. ومن المعروف أن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد يكون مبنيّاً على الفتح. والفرق بينهما من النواحي التالية:

- أ- أن الفعل المضارع المنصوب لا بد أن يسبقه أداة نصب.
- ب- أن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد لم تعمل فيه أية أداة. أقصد بذلك أن الفتح فيه لم تكن أثراً لعامل سابق.
- ج- أن حركة الفعل المضارع المنصوب حركة إعراب في حين أن حركة المضارع المتصل بنون التوكيد حركة بناء.

د- فإذا وافقنا الدكتور ضيف على أن حركة الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد هي حركة نصب فما قولنا إذا سبق ذلك الفعل بأداة جزم مثل لا الناهية في قول الشاعر:

لا تمدحن امرأ حتى تجربته

فإذا قلنا إن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد هنا وهو "تمدحن" منصوب فكيف نوفق بين قولنا هذا وقولنا إنه مسبوق بلا الناهية التي هي حرف جزم؟

ومن الملاحظ أن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد أكثر ما يقع بعد أداة جزم مثل لا الناهية أو لم أو لمّا الجازمين أو إن الشرطية الخ.. فكيف نوفق بين قولنا إن الفعل هذا منصوب وقولنا إنه

مسبق بأداة جزم أو شرط؟ وهل يجتمع النصب والجزم بحال؟

هـ- إن فعل الأمر المتصل بنون التوكيد هو أيضاً مبني على الفتح فهل نحسبه منصوباً؟ نقول:

أدرسن أو اكتبن أو اقفرن فيكون فعل الأمر مبنيّاً على الفتح لاتصاله بنون التوكيد مثل الفعل المضارع تماماً فبأي منطق نزع أن هذا الفعل منصوب؟ ألسنا بهذا الاقتراح نضرب عرض الحائط بالمنطق النحوي ونلغي الفواصل بين الوظائف النحوية؟

ثانياً- اقترح الدكتور ضيف أن تلحق الفعل المضارع المتصل بنون النسوة بالمجزومات في نحو: النساء يدرسن. ومن المعروف أن الفعل المضارع هنا مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة.

ويريد الدكتور ضيف أن يلحقه بالمجزومات على اعتبار أنه لا فرق بين المضارع المجزوم والمضارع المتصل بنون الإناث. ولا فرق بين الفعلين في ظاهر الأمر ولكن الفرق حاصل في الحقيقة والواقع فالمضارع المتصل بنون النسوة قد يجيء في محل رفع أو نصب أو جزم في مثل قولنا:

النساء يسافرن

النساء لن يسافرن

النساء لم يسافرن

فالمضارع هنا مبني على السكون حقاً ولكنه في محل رفع في المثال الأول لتجرده عن الناصب والجازم وغما يوجب بناءه، وهو في محل نصب في المثال الثاني لأنه مسبق بأداة نصب، وهو في محل جزم في المثال الثالث لأنه مسبق بجازم. وليست الأحوال الثلاثة سواسية في حساب المنطق النحوي. ولذلك فرق حذاق النحاة بين ما يكون مبنيّاً على السكون وما يكون مجزوماً وجعلوا بينهما فواصل وفوارق. وإذا كان صاحبنا الدكتور ضيف يحتج بتشابه المجزوم والمبني على السكون فهما مختلفان في الحقيقة والواقع إلا إذا جاز لنا أن نعتبر لم وهل ونعم- وكلها أدوات مبنية على السكون- مجزومة.

ثالثاً- يقترح أن لا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها شيئاً في تصحيح الكلام والنطق به نطقاً سديداً... وعلى الرغم من أن النطق وإيقانه غاية سامية من غايات تدريس النحو فإن هذا القول مردود بالحجج التالية:

1- أن النحو يتناول أموراً تتجاوز حركة آخر الكلمة إلى أحرفها وهيئة بنائها وطبيعة تركيبها وموقعها من الإعراب.

2- أننا لا نستطيع أن نضع حدوداً فاصلة بين الصرف والنحو واللغة وقه اللغة وعلم المعاني. وكلها تعالج موضوعات متداخلة متشابكة. ولم يقل أحد إن هذا الموضوع تنحصر مهمته في بحث ما يتعلق بالنطق فقط.

شبه الاسم الواقع بعد ربّ أو الواو في مثل قولنا: ربّ قول أنفذ من صوّل. وقولنا: وليل كموج البحر أرخى سدوله. ألم تجعل النحاة لكل حالة من تلك الحالات وضعاً خاصاً قائماً على مسوّغات عقلية ونحوية سليمة؟

سادساً- يزعم الدكتور ضيف أنّ المضاف إليه قلق في موضعه في كتب النحو العربي ولذلك فهو يقترح أن نلحقه بتوابع المفردات. وهو يقول في ذلك: إنّ المضاف إليه أشبه بالتابع وإن لزم الجر. فثلاثة أقلام مثلاً واضح فيها أنّ أقلام تابعة للثلاثة. ومن الممكن أن نقول الأقلام الثلاثة وهي حينئذ تعرب صفة أو بدلاً. منطوق الدكتور ضيف عجيب هنا. فهو يقترح أن نلغي المضاف إليه ونلحقه بالتوابع، لأننا نستطيع أن نقول: الأقلام الثلاثة بدل ثلاثة الأقلام.. ومن المعروف أنّ قولنا ثلاثة أقلام مضاف ومضاف إليه في حين أن قولنا الأقلام الثلاثة هو موصوف وصفة وأن أحد التركيبين لا يقني عن الآخر ولا يلغيه. فلماذا يجيبنا الدكتور ضيف بمثل هذه الأفكار الحمئة والمفترحات الصدئة؟

سابعاً- يقترح المؤلف إلغاء الفاعل أو نائب الفاعل حينما يجيء ضميراً مستتراً في مثل: زيد قائم. ويقول: وهو استتار وهمي لا دليل عليه.

واقترح الدكتور ضيف مردود بما يلي:

1- أنّ الفاعل يجيء اسماً ظاهراً في مثل: حضر زيد، ويجيء ضميراً متصلاً في مثل: حضرتت وكتبنت وحضرنا وكتبنا، فلماذا لا يجيء ضميراً مستتراً في مثل: زيد قائم؟

2- نحن نقول: زيد حاضر فعرب (زيد) مبتدأ و(حاضر) خبراً. فإذا قلنا: زيد حضر، وجب علينا أن نعرب (زيد) مبتدأ على النسق السابق. وتكون جملة (حضر) في محل رفع خبر (زيد) ولا يصح أن نعرب (زيد) مبتدأ في الأولى وفاعلاً في الثانية.

3- وإذا كانت جملة (حضر) في الجملة السابقة في محل رفع خبر المبتدأ فلا بد أن نضمّر في فعل (حضر) ضميراً حتى يصح تأليف الجملة. ذلك أن الجملة تتكوّن من إسناد فعل إلى فاعل ولا تتكوّن دون ذلك. وعلى هذا الأساس يكون تقدير الضمير شيئاً أساسياً وجوهرياً.

4- نقول: زيد حضر، والزيدان حضرا، والزيدون حضروا، فيكون الفاعل هو الضمير المستتر في الجملة الأولى وألف الإثنين في الثانية وواو الجماعة في الثالثة. وليس صحيحاً القول بأنّ ألف الاثنين وواو الجماعة لا محل لهما من الإعراب وأن القصد منهما الإشارة إلى كل من حالة التنثية وحالة الجمع. ولو كان الأمر كذلك لكان في إمكاننا إلحاقهما بالفعل قبل الفاعل في مثل قولنا:

حضر الرجلان و حضر الرجال. ولكن ذلك ممتنع. مما يدل على أنّ ألف الاثنين وواو الجماعة لا تبيان علامتي تنثية وجمع بل لا بد لهما من عمل.

5- إذا قلنا: إنّ زيداً حضر. فهل تكون (زيد) أيضاً فاعلاً ويكون الفاعل منصوباً؟ كل هذه

الأسباب تبطل اقتراح الدكتور ضيف ومن لف لفه من دارسي النحو في القول ببطلان مجيء الفاعل ضميراً مستتراً.

ثامناً- يقترح إلغاء الحديث في إعراب الجمل، لأنه على حد زعمه لا يفيد في نطق الكلام. ولا شك أن هذا نوع من التيسير إذا كان الموضوع منحصراً في تعليم الصغار. أمّا أن يحى الموضوع كله من النحو، فهذا محض تمحل لأنّ الجمل تقع موقع الألفاظ المفردة فهي من ثمّ تعمل عملها وتتوب عنها. فحين نقول: مررت برجل يزرع فمحل (يزرع) الجر لأنها في محل صفة للفظ (رجل) النكرة. ولو قلنا: مررت بالرجل يزرع، لأختلف الأمر وكانت جملة (يزرع) في محل نصب على الحال تمسكاً بقول النحاة: الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال. وإذا كان هذا التفصيل غير ضروري لطالب في الصفوف الابتدائية فهو جدّ ضروري في الصفوف العليا وللمتخصصين والمنطق يفرضه. وما دام القول بذلك أمراً معقولاً فلا يمنع منه شيء، لأنّ العقل لا يقبل أن تحد حركته حدود. والنحو علم فليس من المعقول أن نجعل حدوده ضيقة ونجعل رسم تلك الحدود وقفاً على حاجة الصغار والمبتدئين.

تاسعاً- يقترح الدكتور الامتناع عن بيان محلّ الألفاظ المبنية والمقصورة والمنقوصة من الإعراب... وكأنه يدعو إلى الاكتفاء بوصف حركات أواخرها دون النظر في موقعها من الإعراب وهذا الاقتراح يلحق سابقه، فما دُمنا نبيّن موقع اللفظة الصحيحة من الإعراب لتحديد حركة آخرها فلماذا نمتنع عن ذلك إذا كانت اللفظة مبنية أو مقصورة أو منقوصة؟ نقول: حضر سيبويه، وسيبويه لفظة مبنية على الكسر، فهل نكتفي بالقول إنها مبنية على الكسر دون تبين موقعها من الإعراب؟ ولماذا يكون ذكر هذا الموقع محرماً؟ وكذلك في قولنا: جاء الفتى، وحضر القاضي، يطالبنا الدكتور ضيف بأن نقول: (الفتى) اسم ساكن الآخر دون أية إشارة إلى موقعه الإعرابي.

وكذلك (القاضي) وهو بهذا يصف حركة الآخر حقاً ولكنه يقصر عن وصف موضع الكلمة من الإعراب وتحديد وظيفتها وتبيين علاقتها بما قبلها أو ما بعدها. وهذا كله قصور عن بلوغ الإتيان والكمال في الصناعة النحوية.

عاشرأ- يقول الدكتور ضيف: ففي إعراب (لولا دعاؤكم) لا تعرب (دعاؤكم) مبتدأ مرفوعاً والخبر محذوف والتقدير موجود كما يقول النحاة، لأنّ هذا يعود بنا إلى التقدير والتأويل، وإبما نكتفي بأن نقول (دعاؤكم) شبه جملة مرفوعة.

وهذا اقتراح عجيب غريب حقاً من النواحي التالية:

أ- من المعروف أن لو ولولا من أدوات الشرط غير الجازمة ولكل منهما استعمال خاص به. ويجب أن يقتزن جوابهما باللام. فكيف تصبح الجملة الشرطية شبه جملة؟

ب- متى كان من الممكن مجيء أشباه الجمل مرفوعة ومنصوبة ومجرورة؟ ومن المعروف أن

شبه الجملة هي جار ومجرور أو ظرف ومضاف إليه. وقد أطلقوا عليها مصطلح شبه الجملة لأنها لا تفيد فائدة كاملة. فكيف يطلق هذا المصطلح على ما لا يمت إليها بصلة ولا يتكوّن لا من جار ومجرور ولا من ظرف؟

ج- إنّ الأخذ بمقترح الدكتور ضيف يخلخل فكرة شبه الجملة في أذهان الطلبة. ويصبح عمل الدكتور كأنه هدم لما اتفق عليه النحاة. ونحن بحاجة إلى شيء تنفق عليه لا إلى أشياء تختلف عليها.

ويلحق بهذا البند ما اقترحه من وجوب اعتبار بعض صيغ النداء المنصوبة وصيغ الإغراء والتحذير من قبيل أشباه الجمل المنصوبة، وغير ذلك من أشباه الجمل المجرورة. وكل هذا وما شابهه محض خيال وتوهم لأنّ أشباه الجمل لا تخرج عن أن تكون جاراً ومجروراً أو ظرفاً. هذا عدا أنّ الأخذ باقتراح الدكتور ضيف لا يفيد شيئاً بل هو دعوة إلى الهدم والاضطراب.

وهكذا يتجاوز الدكتور ضيف الحدود في تقديم المقترحات ومخالفة أقوال السابقين مما استقام نهجه واتّلاّب مجراه. وقد بالغ الدكتور ضيف في ذلك حتى كأنه يعمد إلى تخريب النحو وإخراجه من هندامه الذي نسج على قدّه ومقداره..

ولا أقول هذا كلّ لأني أخرج من مخالفة السابقين فقد خالفهم في مواضع كثيرة وأعلنت ذلك على الملأ ولكنّ المخالفة ينبغي أن تقوم على العقل والمنطق كما ينبغي أن نحاسب النحاة بقواعدهم ومقاييسهم لا بقواعد ومقاييس لم يعرفوها.

وصفوة القول أنّ الدكتور ضيف لم يكن موقفاً فيما قدّم واقتراح في موضوع تيسير النحو وتسهيل تدريسه. وكانت مقترحاته بعيدة عن روح النحو من جهة ومخالفة للمنطق ومقتضيات العقل من جهة أخرى. ولذلك لم تترك أي صدى لا في الأذهان ولا في الأذان.

الأثير الجزريّ

كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)

د. سمر روجي الفيصل

مدخل

نصر الله بن أثير الدين محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. ولد في جزيرة ابن عمر، شمالي الموصل، يوم الخميس الموافق للعشرين من شعبان عام 558هـ، وتوفي يوم الاثنين الموافق للتاسع والعشرين من ربيع الآخر عام 637هـ في بغداد. كُتِبَ بأبي الفتح، ولُقِبَ بضياء الدين، واشتهر بابن الأثير الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر.

له أخوان يكبرانه، اشتهر كلٌّ منهما بابن الأثير الجزري، هما:
- المبارك بن الأثير (ولد عام 544هـ)، وكان مُحَدِّثًا فقيهاً اشتهر بلقبه "مجد الدين"، وكنيته "أبي السعادات".

- علي بن الأثير (ولد عام 555هـ)، وكان مُؤرِّخًا اشتهر بلقبه "عز الدين"، وكنيته "أبي الحسن". وهو صاحب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" و"الكامل" وغيرهما.

أمّا أبوه محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني فَلَقَّبَ بأثير الدين، وعُرف بأمانته ورجاحة عقله وبرّه بأهل جزيرة ابن عمر. عهد إليه بولاية الجزيرة وتولّى خراجها بين 541-565 هـ، فلم يُنقل على الناس في تحصيل المكوس ومسح الأرض وجبي الخراج. وكان في الوقت نفسه تاجراً ثرياً ذا صلة قويّة بال زنكي أتابكة الموصل. إذ إن قطب الدين مؤدود هو الذي عهد إليه بولاية جزيرة ابن عمر. وحين وثق من أمانته جعله صاحب خزانته في الموصل، فانقل أثير الدين بأسرته إليها، ومكّن لأولاده عند الأتابكة من بعده.

نشأ ضياء الدين بن الأثير في أسرة عربيّة شيبانيّة ثريّة ذات مكانة لدى الأتابكة. وكان لهذه النشأة أثر في اعتداده بنفسه، وتفوّعه للعلم، وتفتح موهبته الأدبية، وطموحه إلى المكانة السياسيّة.

الطوسي، ويحيى النقفي. وتشير مؤلفات ضياء الدين إلى أنه حرص على التّسوّع والشّمول، فلم تكن قراءته مقصورة على علوم اللغة وحدها، بل شملت كتب النقد والحديث والفقه والشّعر والأدب والتفسير، إضافة إلى القرآن الكريم. وهو، تبعاً لذلك، أمين لمفهوم ثقافة الكاتب الموسوعيّة، راغب في أن يجسّد هذا المفهوم ليتمكّن من الخوض في الفنون الأدبيّة كلّها، لأنّ الكاتب في رأيه لا يقدّم على الكتابة إذا لم تكتمل لديه المعارف جميعها. ولا شكّ في أنه بالغ كثيراً في ثقافة الكاتب، ولكنّه حرص، في الحالات كلّها، على أن يستمدّ ثقافته من مصادر متنوّعة، تكاد تشمل ما كان سائداً في عصره.

وإذا قصرنا حديثي على مصادر ثقافته البلاغيّة والنقدية قلّت إن مؤلفاته تضمّ اقتباسات من أبرز الكتب البلاغيّة والنقدية في عصره، كالموازنة للأمدّي، والوساطة للقاضي الجرجاني، ونقد الشّعر لقدامة بن جعفر، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، وسرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، والبيان والتبيين للجاحظ، وغيرها. وهذه الاقتباسات تدلّ دلالة واضحة على أنه أنعم النّظر في الكتب التي قرأها، فهو يناقشها مناقشة العالم بأسرارها، العارف بمواطن الجودة والرداءة فيها، القادر على استحضارها وتوظيفها والمقارنة بينها. كما تدلّ الاقتباسات نفسها على أن هناك كتباً أثّرت فيه، كسرّ الفصاحة لابن سنان، والموازنة للأمدّي، ودواوين أبي تمام والبحتريّ والمتنبي.

مؤلفاته:

تشير مؤلفات ضياء الدين إلى اهتمامه بثلاثة أنواع من التّأليف: أولها الاختيارات، وثانيها البلاغة والنقد، وثالثها صناعة الإنشاء. وهذا ثبت بمؤلفاته في الأنواع الثلاثة:

1- الأديبة المئة المختارة.

مطبوع ضمن كتاب "المفتاح المنشأ في حديقة الإنشاء"، نج: هلال ناجي - الموصل 1983

2- الاستدراك على المآخذ الكنديّة

تج: د. حفني محمّد شرف - القاهرة 1958

(هذا الكتاب استدراك على كتاب "المآخذ الكنديّة من المعاني الطائيّة، أو: سرقات المتنبي من أبي تمام لابن النّهان).

3- البرهان في علم البيان

4- تحفة العجائب وطفرة الغرائب، مختارات من الشّعر والنثر - جزءان. (لم تثبت صحّة نسبة الكتاب إلى ابن الأثير).

5- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور.

كَأَنَّ بِنَاتِ الْمَاءِ فِي حَجَرَاتِهِ
أَبَارِيقُ أَهْدَتْهَا دِيَافُ بَصْرَ خَذَا
بِأَجْوَدَ سَنِيًّا مِنْ يَزِيدَ إِذَا غَدَتْ
بِهِ بُخْتَهُ يَحْمِلُنْ مُلْكاً وَسُوداً (10)

ينسحب على جوانب متعددة، أولها: إذ شرع بوصف فيضان هذا النهر، فزبدته "يعلو جزائر حامر"، ويشق شجر الخيزران والغرق، وهذا جعل أهل عانة يحترسون من أن يطوف على ديارهم، بعد أن علا زبده حول سورها، وأوشك أن يطفو عليها ويغرقها، وثانيها: حديثه عن الملاح، فهذا النهر يثير اضطرابه، حتى يرهقه الحزن منه خوف الغرق، على الرغم من ألفته له، واختياره الطويل لأمر الملاحة فيه، وثالثها: عودة الأخطل إلى وصف النهر المزبد، فأواجه متلاحقة بيض، شبيهة بالنعناع لزبدتها، لا تبرح تعبت بالسفينة وتطردّها في كل جهة، كما يقف الشاعر عند الطيور (بنات الماء) التي تطوف في مختلف نواحي النهر إذ يشبهها بالأباريق التي تهدي فتنتقل من (دياف لصرخد)، ورابعها: ويتمثل كما يقول الدكتور الرباعي بقل التشبيه - (11)، إذ يقول الأخطل إن هذا النهر في فيضانه الهائل المروّع، ليس بأعظم عطاء من يزيد بن معاوية، رابطاً المشبه بشرط زمني مفاده: إن يفد الممدوح على إبله الخراسانية.

ومن صفات النهر وأسمائه (الفرات)، كقول عمر بن أبي ربيعة:
أُسْكِنَ مَا مَاءُ الْفَرَاتِ وَطِيه
مَنَا عَلَى ظَمَأٍ وَحَبِّ شَرَابٍ
بِأَلْفٍ مِنْكَ وَإِنْ نَأَيْتِ، وَقَلَمَا
تَرَعَى النِّسَاءُ أَمَانَةَ الْغِيَابِ (12)

في البيت الأول يصف عمر بن أبي ربيعة نهر الفرات (المشبه به) بطيب شرابه، رابطاً ذلك بزمان يكون فيه المرء ظمآن، وهو وصف موجز، وفي البيت الثاني يقيم الشاعر مقارنة بين المشبه والمشبه به، فهذا النهر على الرغم من طيب شرابه فإنه ليس بألذ من سكينة وإن نأت.

ومن صفات النهر أيضاً وأسمائه (الغدير)، كقول ذي الرمة:
وَمَا ثَغْبٌ بَاتَتْ تَصْفَقُهُ الصَّبَا
قَرَارَةٌ نَهَى أَتَانَتْهُ الرِّوَابُحُ
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا وَلَا طَعْمُ قَرْقَفٍ
بِرْمَانٍ لَمْ يَنْظُرْ بِهَا الشَّرْقُ صَابِغٍ (13)

يصف ذو الرمة في بيته غديرأ عذبا، ضربته ريح الصبا، وملأته السحب الممطرة، وهذا الغدير بعذوبة مائه، وخمر زمان طعم مذاقه، ليس بأطيب من فم مَي صاحبته، وأعذب منه. فذو الرمة وفر للمشبه به الزمان (باتت)، ووفر له أيضاً المكان (قرارة نهى).

ويصف الماء إذا كثر بأنه (بحر)، يقول جرير:
مَا الْبَحْرُ مُغْلُولِيًّا تَسْمُو غَوَارِبُهُ
يَقْلُو السَّافِينَ بَأَذْيٍ وَإِزْبَادٍ
يَوْمًا بِأَوْسَعَ سَنِيًّا مِنْ سِجَالِكُمْ
عِنْدَ الْعَنَاءِ وَعِنْدَ الْمُعْتَفَى الْجَادِي (14)

لقد اكتفى الشاعر هنا بوصف المشبه به بسمو غواربه وزبده، بينما نجده يفصل في المشبه إذ حدد وعين المستفيدين من عطاء الممدوح، وهما فئتان من الناس: العُناة الذين سلبوا حريتهم بسبب أسرهم، فأطلق الممدوح سراحهم، والمعتقون المعوزون الذين يستجدون الناس لصيق ما في أيديهم، فكفاهم الممدوح مؤونة ذلك بما قدمه لهم من عطاء، لقد تحقق التشبيه الدائري في مقولة الشاعر إذ ورد في القفل مقارنة بين المشبه والمشبه به، فعطاء معاوية بن هشام بن عبد الملك أوسع من فيضان بحر سمت غواربه.

ومن عناصر الماء في شعر الشاعر الأموي (المطر المنهل)، يقول ذو الرمة:

وما الوسْمى أَوْلَىٰ بِنَجْدٍ	تَهْلَلُ فِى مَسَارِيهِ أَنَّهُ لَلَا
بَذَىٰ لَجِبٍ تَعَارُضُهُ بُرُوقٌ	تُشْبِهُ الْبُلُقِ تَشْتَعْلُ اشْتِعَالَا
قَلَمَ تَدْعُ الْبَوَارِقُ عِرْقَ بَطْنٍ	رَغِيْبٍ سَيَلُهُ إِلَّا مُسَالَا
أَصَابَ النَّاسَ مِنْقَمَسَ الثَّرِيَا	بَسَاحِيَةٍ وَأَتْبَعَهَا طِلَالَا
فَأَرْدَقَتْ الذَّرَاغُ لَهُ بَغْيُثٌ	سَجُومَ الْمَاءِ فَأَنْسَحَلَ اتِسْخَالَا
وَنَثَرَتْهَا وَجَبَتْهَا هَرَاقَتٌ	عَلَيْهِ الْمَاءُ فَاکْتَهَلَ اكْتِهَالَا
أَبَتْ عَزْلَاءُ كُلِّ نَشَاصٍ بَخْرٌ	عَلَىٰ آثَارِهِ إِلَّا اتْعَالَا
فَصَارَ حَيًّا وَطَبَقَ بَغْدُ خَوْفٍ	عَلَىٰ حَرِيَّةِ الْعَرَبِ الْهُزَالَا
كَأَنَّ مَنْوَرَ الْخَوْذَانِ يُضْحَى	يَشُبُّ عَلَىٰ مَسَارِيهِ الدُّبَالَا
بِأَفْضَلِ فِى الْبَرِيَّةِ مِنْ بِلَالٍ	إِذَا مَيَّلَتْ بَيْنَهُمَا مِيَالَا (15)

في البيت الأول يذكر الشاعر مطراً وصفه بـ (الوسمي)، ووفر له زمناً وهو فصل الربيع، ووفر له أيضاً مكاناً وهو (بنجد)، ووصفه (تهلل انهلالاً في مساريه)، وفي البيتين الثاني والثالث يذكر ما صاحب هذا المطر من رعد (بذي لجب)، ومن برق (بروق)، مشبها البروق بلبعانها بـ (شبوب البلق تشتعل اشتعالاً)، وفي الأبيات الرابع والخامس والسادس والسابع يتحدث عن كثرة الماء في هذا المطر، وعن النجوم التي أسهمت في هذه الكثرة، إذ رد ذلك إلى نجمي (الذراع) و (نشاص)، وخلص في البيتين الثامن والتاسع إلى ما تركه الوسمي من أثر، إذ أحيا الناس حتى أخصبوا، كما عمل على أن يزهر نبات الخوذان الذي شبهه الشاعر بذبالة فيها سراج، وفي البيت العاشر وهو القفل قارن بين المشبه والمشبه به، فالوسمي وما تركه من أثر (في البرية) ليس بأفضل من بلال بن أبي بردة في

عطائه لمن مالت بهم الأيام، وقد حرص ذو الرمة أن يربط المشبه بشرط زمني.

من خلال الأمثلة الشعرية التي قدمت، والتي مصدرها الطبيعة نلاحظ الشعراء الأمويين في حديثهم عن عناصر الماء يتشابهون ويختلفون، يتشابهون في توظيف التشبيه الدائري في مجالي المدح والغزل، ويتشابهون أيضاً في حرصهم على توافر المكان والزمان للمشبه به، وعلى ربط المشبه - خاصة في مجال المدح - بشرط زمني، ويختلفون في كم عدد الأبيات الشعرية التي تحمل ظاهرة التشبيه الدائري اتساعاً وتفصيلاً أو ضيقاً واقتضاباً، وأعدنا ذلك في حينه إلى الحاجة النفسية لدى الشاعر، وإذا ما قارنا بين الشاعر الأموي والشاعر الجاهلي في حديثهم عن عناصر الماء في ظاهرة التشبيه الدائري وجدنا أنهم يتشابهون ويختلفون أيضاً:

يتشابهون في حرصهم إلى حد ما على ذكر التفصيلات التي تتعلق بالمشبه به، وخاصة عند الحديث عن النهر، فكلاهما يبدأ بوصف النهر وصفاً عاماً، وكلاهما يذكر الملاح وما يعتريه من حذر وخوف، وكلاهما أيضاً يستخدمه في مجال المدح، ويتشابهون في كم أبيات التشبيه الدائري، فهي تتراوح بين القلة والكثرة، ويتشابهون في اقتران المشبه بشرط زمني، خاصة في مجال المدح، ويختلفون إلى حد ما في أن التشبيه الدائري الذي يعتمد على عناصر الماء تكون فيه عناصر القصة في شعر الشاعر الأموي أكثر وضوحاً منها في الشعر الجاهلي. (16)

والموضوع الثاني من موضوعات الطبيعة الذي اهتم الشاعر الأموي بتصويره (الروضة)، يقول الأخطل:

ما روضة خضراء، أزهر نورها	بالقهر بين شقائق ورمال
نهج الربيع لها، فجاد نباتها	ونمت بأسحمت وابل هطال
حتى إذا التف النباتات، كأنه	لون الزخارف، زينت بصقال
نفت الصبا عنها الجهام وأشرقنت	للشمس، غب دجنة وطلال
يوماً، بأملح منك بهجة منطق	بين العشي وساعة الآصال (17)

في هذه الأبيات نلاحظ الأخطل قد عمل على توافر الأشياء التالية للروضة:

أ- في البيت الأول وصفها (روضة خضراء)، و(أزهر نورها)، وحدد مكانها (بالقهر بين شقائق ورمال).

ب- في البيت الثاني حدد زمان هذه الروضة (الربيع)، وذكر العناصر التي اسهمت في إبراز جمالها.

ج- في البيت الثالث عاد الشاعر ثانية ليصف الروضة (حتى إذا التف النباتات كأنه لون الزخارف...).

مرعو وآثار آيات)، لأنها متوجسة على وليدها، ثم في القفل يقيم مقارنة بين طرفي التشبيه إذ يقول: إنَّ أم خشف ليست بأحسن منظراً من ليلي وهي تنظر مرة تلو أخرى إلى صاحبها المجنون إبان عزم قومها على السفر، فالشاعر في هذه المقارنة بين طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به) وقف عند بعض الصفات المشتركة بينهما، وهي جمال العيون وخاصة زمن سفر القوم ورحيلهم.

ويقول عمر بن أبي ربيعة في مجال الظبية الأم أيضاً:

ما ظبيّة من ظباء الأرا تكفرو دماث الربا عاشبا

بأحسن منها غداة الغميم إذا أبدت الخد والحاجبا (29)

حدّد الشاعر مكان الظبية فهي من ظباء (الأراك)، وذكر مرعاها (تفرو دماث الربا عاشبا)، ثم أقام مقارنة بينهما وبين صاحبتها، إذ قال إنها ليست بأحسن منها (إذا أبدت الخد والحاجب)، رابطاً ذلك بزمان ومكان؛ الزمان هو (الغداة)، والمكان هو (الغميم)، كما ربط تفوق صاحبتها في مجال الحسن بشرط مفاده بروز الخد والحاجب.

ويقول ذو الرمة في الظبية الأم أيضاً:

فما ظبيّة ترعى مساقط رملة كسا الواكف الغادي لها وزقاً نضرا

تلاعا فراقت عن خوضى وقابلت من الخبل ذي الأدعاص أمله غفرا

رأت أنسا عن الخلاء فاقبت ولم تبذ إلا قى تصرفها دعرا

بأحسن من م عشيّة حاولت لتجعلن صدعا في فواذك أو وقرا (30)

في هذا التشبيه قارن ذو الرمة بين الظبية وصاحبتها مي، إذ حدّد المكان الذي ترعى فيه الظبية (مساقط رملة) التي عادها المطر فأخرج من بطنها نباتاً نضراً، وحدّد أين استقر ماء المطر (عند خوضى)، وذكر الأرض القضاء التي كانت تمرح فيها الظبية في (جبل ذي الأدعاص أمله غفرا)، وذكر أيضاً من رآته في تلك الأرض القضاء وهو الإنسان، ولعله صياد، وأشدّ ما يبهر أنّ الظبية أثناء ذلك لم تنزع ذلك الفزع، ولم تنفر نفاراً قبيحاً أكثر من أنها مدّت عنقها، فهي مطمئنة، إنّ ظبية ذي الرمة في (المشبه به)، ليست بأحسن من مي (المشبه) صاحبتها عشيّة حاولت (لتجعل صدعا في فواذك أو وقرا).

من خلال الأمثلة نلاحظ أنّ الشعراء الأمويين قد تشابهوا في الحديث عن الظبية كطرف من أطراف التشبيه الدائري إلى حد ما، إذ حددوا مكانها، والمرعى الذي ترتاده، وما أصابه من مطر، وبعضهم ذكر مراعاتها لولدها، كما تشابهوا أيضاً في الحديث عن المرأة كطرف آخر من أطراف التشبيه الدائري، فهي دائماً الأحسن في جمال نظرات عيونها، والأحسن في جمال وجهها، والأحسن فيما يصدر عنها من دلال وتصرفات وحركات لها أثرها في صاحبها، إذ تجعله متيماً مكبلاً لما أبدته

من تمنع وصدة، ولا ينسى الشاعر الأموي أن يشير إلى الزمن الذي تكون فيه صاحبتة أحسن وأجمل من الظبية، كأن يكون (عشية) أو (غداة)، ولم ينس أيضاً أن يذكر المكان الذي يسهم في الحسن والجمال كأن يكون (الغميم)(31).

وعند موازنة ما لحظناه في شعر الشاعر الأموي إبان حديثه عن الظبية الأم بشعر الشاعر الجاهلي في مضمار ظاهرة التشبيه الدائري -بحكم أن تطابقاً عميقاً في حديثهما عن الظبية الأم، فكلاهما حدد مكان الظبية (المشبه به)، وحدد مرعاها وما ترعاه، والوسائل التي أسهمت في جعل المرعى غطاءً أحوى، وتم هذا التطابق إلى حد ما بينهما أيضاً في حديثهما عن المرأة (المشبه)، فكلاهما جاء حديثه عن جمال المرأة، وإن كل حديث الشاعر الأموي أوسع فضاءً، إذ ذكر بالإضافة إلى جمال العيون، جمال الوجه، وجمال حركات الدلال.(32).

وفي مجال الظبية الابن يقول الأخطل:

فما شادَنَ تِرْعَى الحمى ورياضها تِرْوَدُ بِمَكْحُولِ نَوُومٍ مُوشِخِ

بأحسن منها يَوْمَ جَدَّ رَحِيلُنا مع الجَيْشِ لا بَلَّ هِيَ أَبْضُ وَأَصْبَحُ(33)

لقد حدد الشاعر المكان الذي يرعى فيه ولد الظبية (الحمى ورياضها)، ووصفه فهو (مكحول)، لما غشي عينيه من سواد كالكل، وهو (نؤوم) كناية عن صوته الخافت، وفي البيت الثاني أقام الشاعر مقارنة بين طرفي التشبيه؛ الشادن (المشبه به)، وصاحبتة (المشبه)، إذ يقول: إن الشادن الذي يرتعي الحمى والرياض، يقبل ويدبر فيها، مرجاً مصوباً بصوته الخافت، ومكحول العينين -ليس بأجمل من صاحبتة إذ طالعه يوم الفراق، بل إنها أملح منه وأشد رقة.

لمثل هذا ذهب الشاعر الجاهلي إذ ركز على جمال عيني ولد الظبية، وذكر مرعاه ومكانه، وقارنه بصاحبتة، إلا أن صاحبتة أحسن منه(34).

أما الظبية في مجال الصيد، فيقول جرير:

فما غصماء لا تختو لإلف تِرْعَى فَي ذُرَى الهَضْبِ النَشَامَا

تَرى نَبِلَ الرِّمَاءِ تَطْيِشُ عنها وإن أَخَذَ الرِّمَاءُ لها سِيَهَامَا

مَوْقَاةً إذا تُرْمِي، صَيُوءَ مَلْقَاةً، إذا تَرْمِي الكِرَامَا

بَانُورَ مِن أَمَامَةٍ، حين تَرَجُو جَذَاهَا، أو تَرُومُ لها مَرَامَا(35)

يصف الشاعر الظبية فهي ذات لون أبيض (عصماء)، ويذكر مرعاها (في ذرى الهضب)، ويذكر النبات الذي ترعاه (البشام)، ويذكر أيضاً ما تعرضت له من خطر إذ رميت بالنبل، إلا أن (نبل الرماة تطيش عنها)، إنها (موقاة)، علماً أن هذه النبل لو رمي بها الكرام لأدمتهم، ثم -في بيت القفل-

توافر لها من نعمة الحضانة ليست بأحسن من صاحبة الأحوص الأنصاري إذ قالت تدللاً (تبذل خليلي، إنني متبدلة).

والموضوع الخامس الذي يرتد إلى - الأسد، يقول جرير:

فَمَا مَخْدِرَ وَرْدَ بَخْفَانِ زَارُهُ إِلَى الْقِمَرِ زَجَرَ الزَّاجِرِينَ تَوَرَّدَا
بِأَمْضَى مِنَ الْحَجَّاجِ فِي الْحَرْبِ مُقَدِّمًا إِذَا بَعْضُهُمْ هَابَ الْخِيَاضَ فَعَرَّدَا (39)

فأسد جرير من أسد (خفان) وزنيره فيه زجر لقرنه، ثم قارن الشاعر في القفل بين طرفي التشبيه، المشبه به (الأسد)، والمشبه (الحجاج)، وخلص إلى أن الحجاج في مضائه وإقدامه زمن الحرب أمضى من الأسد في زنيره، رابطاً وجه الشبه بشرط مفاضة: إذا ما تقاعس الخائفون وفروا المذعورون.

وبعد فإن حديث الشاعر الأموي عن الحيوان الذي ذكرنا في مجال التشبيه الدائري يكاد يلتقي في بوتقة واحدة، فجّل الشعراء في حديثهم عنها، توخّوا أن يتوافر للطرف الثاني (المشبه به) المكان والزمان، بينما عملوا على أن يتوافر للطرف الأول (المشبه) التفوق على الطرف الثاني، في مجالات كثيرة كأن يكون في مجال جمال العيون، وفي حسن القول والحديث، وفي بهاء الوجه وإشراقه، وفي تنمّج المحبوب، كما حرصوا أيضاً أن يتوافر للطرف الأول (المشبه) الزمان، كأن يكون ليلاً، أو عشية، أو يوم الرحيل، أو غداة، ولقّما عملوا على توافر المكان للطرف الأول، إلا مرة واحدة، إذ أورد عمر بن أبي ربيعة لفظ (الغميم) في شعره (40).

والمتمأل في الأمثلة التي قدمناها في موضوع الحيوان، يجد أنها جاءت جميعاً في مجال الغزل باستثناء مثال واحد جاء في مجال المدح إبان المقارنة بين الحجاج والأسد، فالممدوح أشدّ مضاءً وإقداماً من الأسد.

والشاعر الأموي فيما ذهب إليه في حديثه عن صور الحيوان يسير في فلك الشاعر الجاهلي، ويقتفي أثره، ويترسم خطاه، وهذا يدعم ما قلناه في الصفحة الأولى من صفحات البحث: إن الشعر الأموي امتداد للشعر الجاهلي في فنيته وموضوعاته، فقد صنع الشاعر الجاهلي الشيء نفسه، إذ وفر المكان والزمان للمشبه به، ووفر التفوق الجمالي للمشبه (41).

كما اتفق الشاعران في أن تكون صورة المرأة مقترنة وصورة الطيبة، وصورة الممدوح مقترنة وصورة الأسد، وزيادة على ذلك جعل الشاعر الأموي صورة المرأة تستحضر صورة بيضة النعام.

وأما موضوعات الإنسان في التشبيه الدائري فلها غير صورة منها أشياء الإنسان الحيائية، ومنها الموضوعات الاجتماعية التي شغلت بال الإنسان الأموي، أما أشياء الإنسان الأموي، فيحكيها الشاعر ذو الرمة، ممثلة في مزادتيه:

وَمَا شَنَنْتَا خَرْقَاءَ وَاهِيَّتَا الْكَلَى سَقَى بِهِمَا سَاقٍ وَلَمَّا تَبَلَّلَا

المقولة إذ ذهبت إلى أن التشبيه الدائري في الشعر الجاهلي شكل للقصيدة وحدتها العضوية لأنه حوى أكثر أبياتها (52). فمما لا شك فيه أن من يستقري نماذج التشبيه الدائري في الشعر الأموي، ويتأملها في القصائد التي وردت فيها، يخلص إلى أن هذه الظاهرة تسهم في بناء الوحدة العضوية في القصيدة الأموية كقريبتها في القصيدة الجاهلية، وشاهدنا أن كثيراً من النصوص الشعرية التي وردت فيها الظاهرة حدث لها انفجار في طرفي التشبيه. وبخاصة في (المشبه)، فكثيراً ما تجاوز (القول) وتعداه إلى أبيات كثيرة، ولعل انفجار هذه الظاهرة يؤدي إلى إنشاء تشبيه دائري جديد، فهذا قول الأخطل يقارن بين صاحبه وولد الطيبة:

فما شادنَ تِرعى الحمى ورياضتها
يرودُ بمكحول. نؤوم مؤشخ
باحسنَ منها يومَ جدّ رحيلنا
مع الجيش لا بل هي أبض وأصبح
وأحسنَ جيداً في السحاب ومضجاً
وتجلّ منها مُقتلين وأملخ
لها أرّج جنّح العشاء كأنه
بمسك وبالكافور يطلى ويتضخ
بأطيب من أرذان ذلقاء بعدما
تغورُ الثريا في المساء فتجنّخ
إذا الليلَ ونسى واستبطرت نجومه
واسفر مشهور من الصبح أفضخ (53)

وردت ظاهرة التشبيه الدائري بطريقتها؛ المشبه والمشبه به، في البيتين الأول والثاني، وعقدت المقارنة بينهما في البيت الذي اصطلح على تسميته ب (القول)، ولكن هذه الظاهرة بطريقتها أيضاً انفجرت مرة ثانية، وخرجت من بيت (القول) الذي فيه المقارنة، وامتدت إلى الأبيات التي تلي، لتشكل قفلاً ثانياً لتقع هذه المقارنة بين الشادن وصاحبة الشاعر، فالشادن ليس أجمل عنقاً ومبسماً، وليس أوسع مقلةً وأجمل من صاحبه، ولم تكف هذه الظاهرة بما ذهبت إليه، فقد أخذت تصف المشبه بأسهب، ثم جاءت بقفل ثالث لتقارن بين المشبه والمشبه به، إذ قال: إن الطيب الذي يطلى ويمزج بالمسك والكافور، والذي يشتدّ تصوعه في المساء، إن ذلك الطيب ليس بأشدّ من الطيب الذي يتضوع من أكمّام قميص صاحبه (ذلقاء)، وربط ذلك بشروط زمني مفاده قبيل الصبح عندما تفسد الأطياب والأنفاس.

ويقول مجنون ليلى أيضاً:

فما وجد أعرابية قدّقت بها
صروم النوى من حيث لم تك ظنت
إذا ذكرت نجداً وطيب ترابه
وخيمة تجدر أغولت وأرئت
بأكثر منى خرقة وصبابه
إلى هضبات باللوى قد أظلت
تمنت أواليب الرعاء وخيمة
بنجد فلم يُقدّر لها ما تمتت

بسم الله الرحمن الرحيم

تحليل نص هي رسالة التوابع والزوابع

(إجازة تابع امرئ القيس لأبي شهيد)

نادر حقاني

- 1- فكرة القصة
- 2- البناء الفني للقصة وجماليات الأسلوب
- 3- جمالية الصورة الشعرية
- 4- التوصيل
- 5- النتائج التي توصل إليها البحث.

مخطط البحث

جانب نظري ويتضمن:

- 1- دواعي البحث.. المنهج.. الغاية
- 2- التعريف برسالة التوابع والزوابع
- 3- خصائص قصة تابع امرئ القيس
- جانب تطبيقي ويتضمن:

الجانب النظري

1- دواعي البحث.. المنهج.. الغاية

يأتي اختياري لهذا البحث بعد اطلاعي على عدة نصوص، وتقليبي لوجهات النظر فيما بينها، وانتهائي لاختيار هذا النص من أجل دراسته دراسة تذوقية، والذي دفعني لاختياره هو تمثله لشخصية ابن شهيد بأبعادها النفسية والاجتماعية والأدبية بأسلوب متميز يشد الانتباه، ويشير في النفس الدهشة والغربة.

حتى إن الأسئلة تتبادر إلى الذهن بصيغ متعددة عن طبيعة هذا النص، فهل تأثر ابن شهيد في

آراء ابن شهيد النقدية، وانتزع اعترافهم بنقوه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطرف وروح الذعابة التي سرت في هذه الرسالة⁸.

3- نصّ قصة تابع امرئ القيس:

والنص الذي بين يدي ما هو إلا قصة جمالها في نسج أسلوها، وبقة ألفاظها، وبعد مراميها الفكرية والحضارية والفنية، وقد جعل ابن شهيد⁹ بدايتها: "تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألفهم من التوابع والزوابع، وقلت: هل حيلة في لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى أستاذن شيخنا، وطار عني، ثم انصرف كلمح البصر، وقد أذن له، فقال: حلّ على متن الجواد، فصرنا عليه، وسار بنا كالطائر، يجتاب الجوّ فالجوّ، ويقطع الدوّ فالدوّ، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جواً لا كجوتنا. متفرغ الشجر عطر الزهر، فقال لي: حلت أرض الجنّ أبا عامر، فيمن تريد أن نبدأ؟

قلت: الخطباء أولى بالتقديم لكني إلى الشعراء أشوق. قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى وادّ ذي دوح تنكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عتيبة بن نوفل بسقط اللوى فحول، ويوم دارة جلجل، إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسي، وعرفتنا كيف إجازتك له!

فظهر لنا فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حيّاك الله يا زهير، وحيّا صاحبك! أهذا فتاهم؟ قلت: هو هذا، وأي حمرة يا عتيبة! فقال لي: أنشد، فقلت: السيد أولى بالإتشاد. فطامح طرفه، واهتزّ عطفه، وقبض عنان الشقراء، وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عناً وكر، فاستقبلناه بالصعدة هاراً لها، ثم ركزها، وجعل يُنشد:

سما لك شوقي بعد ما كان أقصر

حتى أكملها، ثم قال لي: أنشد، فهيمت بالحيصة، ثم اشتدّت قوى نفسي، وأنشدت:

شجته مغان من سليمي وأدور

ومِنْ قُبّة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ريح الصبا، فتحدّر

تكفّتها، والليل قد جاش بحرُه وقد جعلت أمواجُه تنكسر

⁸ إنشا جمان رحب (الأندلسية وأثرها في أدب الأندلس في عصر الموحدين) ص 177 - بحث رسالة ماجستير قدّم بجامعة حلب 1997.
⁹ أنور كلي خير الدين (الأعلام) ص 163 - ج 1 - ابن شهيد الأشعبي (382-426هـ) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد، من بني النواصح، من أشعج، من قبس عيلان. أبو عامر الأشعبي: وزير من كبار الأندلسيين أدباء وعلماء. مولده ووفاته بقرطبة. له شعر جيد، يهون فيه ويجدّ. في (ديوان - ط) جمعه المستشرق شارل بلا. ونصائيف بدعية منها كشف الذك وإيضاح الشكّ وحاتوت عطار و"التوابع والزوابع - ط قطعة منه مصدرة بدراسة تاريخية لطرس السستاني. وكانت بيته وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومدايعات - دار العلم للنسلاين - بيروت 1979 - ط 4

ومن تحت حضنى أبيض ذو سفاسق
وفي الكف من عسالة الخط أسفر
هما صاحباى من لذن كنت يافعاً
مُقيلان من جد الفتى حين يغثُر
فذا جذول فى العبد تُسقى به المنى
وذا غصن فى الكف يجنى، فيثمر
فلما انتهيت تأملني غبيةً، ثم قال: اذهب، فقد أجزتك، وغاب عنا¹⁰.

الجانِب التطبيقى:

1- فكرة القصة:

والنص هو قصّة رحلة خياليّة قام بها ابن شهيد مع زهير بن نمير للقاء تابع امرئ القيس هذا للقاء يقدّم فيه ابن شهيد نتاجه الشعري، لينال إجازة من تابع امرئ القيس.

2- البناء الفني للقصّة وجماليّات الأسلوب:

ولكن كيف نسج ابن شهيد قصّته؟ لقد جعل بدايتها لقاء مع زهير بن نمير فيه تمت إعادة ذكريات من التوابع والزوابع، هذه البداية هي بمنزلة العقدة الرئيسة في القصّة التي انطلقت من خلالها الأحداث¹¹، وعلى منوال هذه البداية نسج ابن شهيد قصّته لرغبة في نفسه، هي شوقه وتوقه للقاء تابع امرئ القيس، هذا الشوق يوحى باللون الأحمر¹² المعبر عن تعطشه للقاء ذلك التابع كي يحظى بإجازة منه.

وابن شهيد يمثّل شخصيّة البطل في هذه القصّة، كما يمثّلها في أغلب قصصه، فهو البطل والراوي، بعكس ما هي عليه الحال في الملاحم، إذ تقوم أبطال القصّة بالقول والفعل، ويبقى الراوي خلف الستار الذاتى يراقب الأحداث وتطوّراتها¹³.

وتأتى شخصيّة زهير لتكون ظلاً لشخصيّة ابن شهيد إذ ترافقه أينما توجه، وحيثما حلّ وتسهم

¹⁰ ابن بسام الشمريني أبو الحسن علي (الذخيرة في غمان أهل الجزيرة) ص 212-213-214 - جامعة فواد الأول - كلية الآداب مطبوع رجم: 26 - القسم الأول - المجلد الأول - مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة 1939 - ط1 - وابن شهيد (رسالة التوابع والزوابع) من ص 122 - حتى 125 - المحصة: الانهزام المغاني: المنازل، أدوز: جمع دار، سفاسق فرند السيف، مقيلان: منهضان - غثيق: بطرس السستاني - مكتبة صادر بيروت - دون تاريخ.

¹¹ (فن القصّة القصيرة) ص 17 - يجب أن يصوّر الخبر حدثاً، وبداية هي الموقف.

¹² المندلطي إبراهيم (الألوان نظرياً وعملياً) ص 58 - الأحمر الخير مشهور ومنير ومبهج ومقلق ومتعب للأعصاب ويؤدي إلى الشعور بالانكسار - مطبعة الكندي بجلب - 1983 - ط1

¹³ غريب جورج (الشعر الملحي - تاريخه وأعلامه) ص 7 - إذ قال: الشاعر في الملحمة رداً لا يزل الساحة بينما الشاعر الغنائي هو فارس الميدان - سلسلة الموسوعة في الأدب العربي رقم 16 دار الثقافة بيروت - بلا تاريخ.

عندما تنير في نفسه نوازع الشوق والتوق لتأمل جمال الطبيعة، وإدراك أبعاد ذلك الجمال.

هذه الجنة التي خالها ابن شهيد، تولّد حدثاً جديداً تولد معه شخصية عتيبة صاحب امرئ القيس عبر الحوار الذي دار بين زهير وابن شهيد، والذي فيه إيجاز بحذف الحرف²⁶ (يا) أداة النداء قبل (أبا عامر) لأنه منادى قريب متلقف للحديث، ولو ذكرت لفقد التركيب انسيابيته.

ومجنيه بأسلوب الإضافة²⁷ لحظة استقباله يريد منه إكساب الكلمة تعريفاً حقيقياً يرصد أبعادها بكل دقة ومهارة، لأن هذا الأسلوب يجعل السامع يألف معه امتزاج الدالّتين للمضاف والمضاف إليه، ولجوء ابن شهيد لهذا الأسلوب في هذا السياق يعني أنه يريد أن يرسم ملامح من هذا وأخرى من ذلك، فالأرض لا قيمة لها إن لم تكن هي هي (أرض الجن)، وبهذا يتفرّع الأصل إلى فرع بحسب السياق، وبحسب ماهية الدلالة المفردة التي تتحول إلى دلالة مركبة تسهم في إغناء الصورة، وإعطائها قيمة تعبيرية ذات مدلولات كثيرة. وتحديد ماهية الأرض من خلال الحوار فيه دلالة على إسهام الحوار في قيادة الحدث إلى الشخصية، وتأتي الشخصية لتأصيل الحدث²⁸.

ويستمر جو الوقار في هذا السياق ليتم جو السياق السابق (فبمن تريد أن نبدأ؟) دلالة على احترام المتحاورين بعضهم لبعض، وهو بهذا يعطيه حق الاختيار، وفي هذه العبارة إحياء بحرية الفكر في المجتمع الأندلسي²⁹ وكانت أحد أسباب ازدهار تلك الحضارة.

ويتابع ابن شهيد حديثه الرزين (الخطباء أولى بالتقديم) على الرغم من شوقه للشعراء، وهذا الأسلوب في الكلام مرتبط بأداب الحديث، وكان ابن شهيد يشير إلى تقنيات التربية في ذلك العصر، وطلبه لصاحب امرئ القيس فيه دلالة على نفسيته النزاعة إلى القمة، وعلى أن السيد لا يقابل إلا السيد، هذا الطلب كان عن طريق الانتقال من العام إلى الخاص، فهو يخصص امرأ القيس لأنه يدرك في أعماق نفسه أنه أفضل المشاركة من الشعراء، وهذا يدل على ارتباط ابن شهيد بالتراث العربي القديم.

ويمضي بالتصوير، فهو وزهير على متن الجواد في أعلى الوادي، وعتبية في قعره والوادي لم يكن وروده عبثاً في هذا السياق بل جاء مرتبطاً بالأسطورة العربية القائلة بوجود وادي الجن الذي يقطن فيه ملهمو الشعراء، كما أنَّ جوَّ السياق يوحي بجنة خضراء مكتظة بالأشجار تجعل الناظر إليها يشعر ببطء الزمن لما فيها من ألوان وأشكال، كما تطرب النفس لصداح العصافير، الذي يُشعر النفس بالطمأنينة والهدوء، ويجعلها تنتشي لما ترى، وتطرب لما تسمع.

المعنى، والثالثة من رضعه انتزيعي كحلية للزركشة إلى رضعه الشعوري كأداة للتعبير - منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ط ١ - - دون تاريخ.

²⁶ (علم المعاني) ص 165-166 - من إيجاز الحذف حذف الحرف.

27 (جہانیاں الأسلوب) ص 68، 69

^{٢٥٦} (في النفس القصيرة) ص ١٢٢ - من الخطأ الحديث عن بناء القصة منفصلاً عن نسجها لأن النسج والبناء شيء واحد.

29 (دیوان ابن: شهید) ص 15-16

وفي هذا المشهد الطبيعي إشارة إلى فن توقف الفارس (فأمال العنان)، والإمالة ترتبط بالمكان العالي، وفي ذلك دلالة على ارتباط اللفظ بالمعنى في سياق القصة، ومفردة (تتكسر) تدل على الاستمرار والدوام، كما أن الشدة الظاهرة على اللفظ توحي بكثرة الأشجار، وتداخلها، ومفردة (تترنم) تتلاءم مع ذلك الجو الطبيعي³⁰ الذي تصدح فيه العصافير، وتغني لجمال الطبيعة.

وينادي زهير صاحب امرئ القيس باسمه، ذاكرًا الأماكن التي ارتبط بها، هذه الأماكن تؤكد تواصل ابن شهيد مع التراث القديم، كما أنها تلخص مسيرة حياة امرئ القيس وأيام الترف والرخاء في دارة جليل، وأيام البؤس والشقاء على زوال ملك كنده، فالبكاء على سقط اللوى فحومل.

ويقرن النداء بأسلوب القصر³¹ (إلا) الدالة على شوقه ولهفته لرؤية ذلك التابع، كما أنها تدل على قدر تابع امرئ القيس، وبعد النداء تأتي الإجابة معلنة الانتقال إلى حدث جديد بشخصية رابعة عندها تحط الرّجال (فإذا فارساً على فرس شقراء كأنها تلتهب)، وورود مفردة (فارس) في هذا السياق نكرة³² فيه تعظيم لقدرة هذا الفارس وللذهن أن يتصور مدى عظمة هذا الفارس بتصور الشقرة اللامتناهية في الفرس حتى يخالها تلتهب، والبعد الآخر لهذه الصورة فكري هو أن الشيطان من نار، أي أن عنصر الدُمومة ملازم لهذا الفارس، من خلال دوام الالتهاب واستمراره³³، وارتباط هذا الاستمرار بصيغة المفردة (تلتهب) بدلاً من (ملتبهة)، ولو جاءت الصيغة (ملتبهة) بدلاً من (تلتهب) لبهتت الصورة، وضعفت لأنها فقدت عنصر الدوام في الالتهاب.

هذا الفارس بما أنه تابع، فهو يعرف زهير بن نمير، والتحية التي أدلى بها (حيّاك الله يا زهير) تشير إلى بدواة هذا الشخص، وبعدها يتساءل مستغرباً (أهذا فتاهم؟) هذا التساؤل يحمل في طياته الأنفة والكبرياء، كما أن مفردة (فتاهم) التي وردت على لسان عتيبة فيها دلالة على أن ابن شهيد يريد تمثيل الأدباء الأندلسيين في حضرة تابع امرئ القيس، كما أن فيها إحياء بحب ابن شهيد لذاته³⁴، فهو يرى نفسه أفضل من الجميع، وتأتي الإجابة من زهير (هو هذا) لتؤكد ذات ابن شهيد، ولتعلي من قدره أمام عتيبة عن طريق اسم الإشارة³⁵، ويوجز في الحوار بحذف الجمل³⁶ التي أراد من خلالها عتيبة الاستفسار عن سبب مجيء زهير، كما تحذف الجمل من الكلام السابق، وكأن حديثاً سابقاً دار بين عتيبة وزهير عن رغبة ابن شهيد في المجيء، وكأن عتيبة على اطلاع سابق على غاية ابن

³⁰ (جانيات المفردة المترامية في كس التفسير والإعجاز) ص 132 - انظر جانيات تميز الصيغة المثلثة باللفظ عن حجم قوة الحركة.

³¹ (جانيات الأسلوب) ص 92

³² (جانيات الأسلوب) ص 73 - تنصرف دلالة النكرة إلى محور أساسي تنوزع منه فروع دلالية لمواقف عدة، فمعنى العموم وعدم التحديد تنشعب منه دلالات الإفراد والتكثير والتحويل والتفخيم والتجاهل.

³³ (جانيات الأسلوب) ص 16 - انظر صيغ الأفعال ودلالاتها.

³⁴ (التفسير انفسى للأدب) ص 33 - إذ أشار إلى أن الترجسية تدل من المدح إلى المدح، وعلى هذا يصبح عمل الشاعر الجزء الجوهري في انشجوبة.

³⁵ (جانيات الأسلوب) ص 61 - وتغلب على لغة الحوار وأسلوبه في كثير من الأوقات الإشارة فهي تمنح الموقف حيوية أكبر ونشأة إلى موضوع الحديث.

³⁶ (علم المعاني) ص 166 - من إيجاز الحذف حذف الجمل.

شهيد في المجيء، هذا الإيجاز يفسح المجال للخيال لتصور مدى فراسة عتيبة وذكائه في إدراك سبب مجيء هؤلاء.

ويتساءل زهير عن المكانة التي تمنح لابن شهيد (وأي حمرة يا عتيبة)، وبهذا التساؤل تنتهي مهمة زهير ليلقي ابن شهيد عتيبة هذا اللقاء هو الحدث الأهم في القصة لأنه يؤدي إلى المغزى من خلال الحوار الذي دار بينهما إذ يطلب عتيبة من ابن شهيد إنشاد الشعر، ويبدو ابن شهيد متواضعاً كما هي الحال في بداية القصة، هذا التواضع فيه اعتراف بسيادة امرئ القيس لأنه الأقدم، وهنا يحترم ابن شهيد من هو أكبر منه قدراً، لأنه يريد أن يظهر بمظهر الشاعر الممثل لشعراء الأندلس عليه هيبة الكبار، وتسيطر سلوكه طبائع وعادات استقاها من الوسط الاجتماعي الأندلسي والقصة في هذا السياق تقدم جانباً هاماً من جوانب التربية³⁷ التي يتمثل بها ذلك العصر، فقد ذهبت طباعة أناقة القصور التي استظلت في أفيانها، وخالط أصنافاً متعددة من أبناء المجتمع أيام النعيم والبؤس، فهو نقطة الذائرة في عصره يرفع الأمراء قدره، ويخطب الوزراء صداقته، ويتبارى الشعراء والكتاب بمساجلته³⁸، كل هذه الأمور ترتبط بهدوء حديثه، ووقار كلامه، وبروز ذاته.

وابن شهيد عندما طلب من عتيبة الإنشاد ملقياً إياه بالسيد، لم يكن لقبه عبثاً، بل كان يريد من هذا اللقب اعتراف عتيبة به، كما أن عتيبة عندما يسمع هذا الكلام ينتشي، وهذا ما حصل من خلال الحركات التي أبدتها حتى إن المتلقي يخاله في زهوه وكبريائه يستعد لأمر عظيم، وهو في وادي الجن، وابن شهيد في أعلى الوادي، وجمع بينهم الحوار، واستجابة عتيبة تقتزن بالخيلاء من خلال الإيحاء الموجود في اللفظ (فتطامح طرفه)، وهذه نظرة الكبار الذي يأنفون من انحناء الرأس، كما أنها ترتبط ببينة القصة فعتيبة في الوادي، ويريد الوصول إلى ابن شهيد.

ويتبع تطامح الطرف باهتزاز العطف (واهتز عطفه) إشارة إلى هيبة الموقف، وتحرك الصورة بين هذا وذاك إلى ضرب الفرس التي يجعلها تتحرك، ويركز ابن شهيد على رشاقة اللفظ المرتبط بالحدث (فسمت) والمعتبر عن نفسية ابن شهيد الطامحة للقبعة، والمفردة (سمت) تؤكد تماسك السياق، ووحدته العضوية³⁹، في ارتباطه مع السياق السابق، وتتم هذه المفردة (فسمت) المعنى، كما تؤكد وجود عتيبة في الوادي وابن شهيد في أعلاه.

وينطلق عتيبة إليهم، فيستقبلونه، فيتوقف برهة، هذا الوقوف يرتبط بفن إنشاد الشعر، عند الاستعداد للإلقاء حين يريح الشاعر أعصابه، ويتأهب للإنشاد، وهذا ما فعله عتيبة ثم أنشد:

³⁷ د. الزعي (مدادى الشغل ونظرية الأدب) ص 60 - فقد أشار إلى ضرورة البحث عن البعد الخلفي في العمل الأدبي - مديرية المطبوعات الجامعية بـ 1992.

³⁸ (رسالة الشوايع والمزايع) ص 31

³⁹ (مدادى الشغل ونظرية الأدب) ص 57 - إذ أكد أن التزامن العضوي شرط ضروري من شروط فنية الأدب.

3-جمالية الصورة الشعرية⁴⁰.

سما لك شوقٍ بعد ما كان أقصرَا

واكتفاء ابن شهيد بذكر هذا الشطر على لسان عتيبة له دلالة على نفسية ابن شهيد التي ترى نفسها في القمة دوماً وحالة السمو تشير إلى ذلك، كما أن هذه المفردة ترتبط بشخصية قائلها، فهو ابن ملك كنده، وقمة شعراء المشرق، وتأتي كاف الخطاب (لك) لتدل على حالة السمو التي تلازم نفسية ابن شهيد، والمفردة (شوق) جاءت بصيغة النكرة⁴¹ لتدل على كثرة الشوق وشدته من جهة ولتبين عمق الصلة بينهما، وسمو الشوق بعد ركوده يؤجج المشاعر ويجعلها تضطرم داخل النفس، هذا الاضطراب يوحي باللون الأحمر المعبر عن العلاقة الحميمة بينهما، وحالة السمو التي وردت على لسان عتيبة باختيار ابن شهيد لها في سياق القصة ما هي إلا تأكيداً لنفسية ابن شهيد النزاعة لإثبات الذات حتى على لسان الآخرين، هذا الاعتراف من عتيبة قبل إنشاد ابن شهيد فيه دلالة على عظمتها، ويأتي الاعتراف متمماً لأحداث القصة، وملزماً لنفسية صاحبها.

وينتهي عتيبة الإنشاد، ويطلب من ابن شهيد أن ينشده (فقال لي: أنشد)، ولا يأتي الإنشاد إلا بعد تبين حالة ابن شهيد عن طريق الإطناب⁴² بالاعتراض الذي أراد منه التحسين لتشويق النفس كي تتابع الأحداث⁴³، والحالة التي انتابت ابن شهيد عندما طلب منه الإنشاد (فههمت بالحصّة) تشير إلى خوفه واضطرابه من جلال الموقف، ويتبع الخوف بالمواجهة (ثم اشتدت قوى نفسي) هذا الإتيان بين الجملة ونقيضها، يجعل القارئ يتخيل إنساناً اضطرب لسماع خبر ما، وبعد ذلك الخوف أراد المواجهة، وفي المواجهة تأكيداً على قوة الإرادة التي تغلب على الانفعالات إزاء الأشياء، وإبراز الحالة النفسية يشوق القارئ ليتابع الحدث تلو الحدث عبر إحكام التسيج⁴⁴ بقيادة الحدث لاكتشاف جوانب الشخصية، ويتأصيل الشخصية للحدث من خلال لغة الحوار البعيدة عن الإبهام، والموجزة في التعبير لتفسح المجال للخيال لتصوّر الأحداث والشخصيات التي تطوّر لها.

والأبيات التي أنشدتها ابن شهيد تصوّر ما آلت إليه حالته النفسية من ألم وشجن على تلك الديار التي عيشت بها أيادي الطامعين والناقمين من الفتنة التي حلت بالاندلس، وقد صرّح ابن شهيد في تنمة القصيدة التي قرأتها في ديوانه بتلك الفتنة إذ قال:

وداويّة من فتنة مذهمة
دريس الصوى معروفها متكر⁴⁵

⁴⁰ (المفسر النفسي للأدب) من ص 89 - حتى 96 - انظر تطبيقات الصورة الشعرية في الشعر القديم.

⁴¹ (جماليات الأسلوب) ص 73.

⁴² (علم لغوي) ص 174 - الإصاّب هو زيادة اللفظ على معنى لفظة بلاغية، كالإحزاس والتأقّب والتحسين والتكرار..

⁴³ د. صديق حيسن (مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي) ص 27 - إن الأدب يحقق هدفه إذا حسّد الواقع وفسّره وحكم عليه - مديونية المخطوعات الجامعية بحل 1994.

⁴⁴ (من القصص القصيرة) ص 97 التسيج هو وحدة كل جزء فيه له وظيفة معينة التي يؤديها مع غيره من الأجزاء.

⁴⁵ (ديوان ابن شهيد) ص 108.

ويتجلى الصراع عن طريق الحوار مع الذات (شجته مغان)، وصيغة الماضي⁴⁶ الملازمة للمفردة (شجته) ترتبط بالذكرى والذكرى توحى بالألم الذي يعتصر الفؤاد، هذا الألم يوحى باللون الأحمر المعبر عن الحالة النفسية التي انتابت ابن شهيد من الجرح الذي أدمى الديار التي وصلت إلى قمة الازدهار، وإذ برياح الفتن تهب عليها لتتال منها، والمغاني التي أشجبت ابن شهيد هي ديار الأندلس، وبذلك يكون ابن شهيد قد عبر عن حالته النفسية بشكل غير مباشر، لينقل انفعالاته إلى الآخرين، ويمضي ليستعيد أيام الازدهار التي وصلت إليها الأندلس، وهذا الحديث عن الازدهار ما هو إلا حالة تعويضية عما انتاب الأندلس من اضطرابات وفتن⁴⁷.

(ومن قبة) والمفردة (قبة) جاءت بصيغة النكرة⁴⁸ لتدلّ على عظمة تلك الديار التي فضلت على ابن شهيد، وهنا إشارة إلى أصلاته بعدم نكران فضل الأندلس عليه، والقبة تنقل القارئ إلى جوها ليتأمل ذلك الجمال والسمو الذي وصلت إليه بحيث (لا يدرك الطرف رأسها)، والقبة توحى باللون الأخضر المعبر عن فتوة الحضارة وشبابها قبيل الفتنة، كما تأتي القبة لتوضيح معالم نفسية ابن شهيد الملازمة للقمة والسمو، وكأن ابن شهيد يريد القول: إنني أأزم تلك القمة التي لا تدرك النفس الإنسانية رأسها مهما حملت من مشاعر الشوق لرؤيتها.

والذوق المترف الذي تمثل به ابن شهيد يتجلى بمجنيبه بالمفردة (تزلّ) التي تتفق وهي تلك القبة التي ازدهرت وسمت، كما أنها تشير إلى رونق البناء وجماله الهندسي، إذ إنّ الريح كالماء الذي ينساب منحدرًا إلى الأسفل، وهنا تكمن براعة التصوير ودقته المتناهية، في رسم حالة الازدهار التي وصلت إليها الأندلس.

ولكن ما حصل أشجى ابن شهيد، وجعله يفصل في حالته (تكلفتها) التي تعطي الصورة المتخيلة في ذهن عن ذلك الشخص الذي يواجه الصعوبات التي تعترض مسيرته في الحياة، هذه الصعوبات المتراكمة ما هي إلا هموم سود⁴⁹ توحى بحالة البؤس التي اعترت نفسية ابن شهيد لما آلت إليه حالة الأندلس التي صورها عن طريق الإطناب الذي يرسم مشهداً تتداخل صوره وقد أراد منه نقل الحالة الشعورية التي يحياها إلى الجميع، من خلال الاندماج مع الطبيعة (والليل قد جاش بحره) صورة سوداء مخيفة توحى بحالة القلق التي خيمت عليه، وقد أراد إزالتها ولكن هيهات، لأن الاضطراب يمثل حالة واقعية على حين ظن الشاعر ذلك اضطراباً في الطبيعة، وهنا يعبر ابن شهيد عن حالته بالصورة (أموحه تنكسر)، وما اضطراب الأمواج إلا اضطراب في نفسية ابن شهيد من جهة، واضطراب في الوسط الاجتماعي الأندلسي من جهة أخرى.

⁴⁶ (جانيات الأمل) ص 17

⁴⁷ (تفسير نفسي للأدب) ص 35. قد تكون الترجسية حالة تعويضية.

⁴⁸ (جانيات الأمل) ص 73.

⁴⁹ (الألوان نظرياً وعملياً) ص 75. أما المعاني التي توحى بالعناية بالسواد فإنها متناقضة، فهي تارة تشير إلى الشكوى والغنى والفرح وعدم الجراءة، وفقدان الأمل، وتارة تشير إلى التحدي والعناد والقوة وعزة النفس.

يوحى باللون الأحمر المعبر عن الحيوية والتجدد في هذه الحياة، كما أنّ نضارة الثمر توحى باللون الأخضر المعبر عن نضارة الحياة أيام عزّ الدولة ونضارة الثمر تحرك حاسة الذوق لتستمتع بنكهة تلك الثمار ونضارتها وحلاوتها، كما أن الرائحة التي تفوح من الثمار تحرك حاسة الشم التي تجعل الناظر إلى الثمار بحاجة لقطفها من أجل تناولها، وتأتي المفردة (يجني) التي تحرك حاسة اللمس عند قطف الثمار حيث تشعر بنضارتها وملسها الناعم، والمعنى الآخر لهذه الصورة فكري، وهو أنّ الرمح عندما يصوب نحو الخصم يجني عليه، ليثمر النصر.

وجمالية الصورة الشعرية السابقة تتجلى في مكوناتها من الملمس الناعم والحركة والذوق والشم واللون تلك المكونات التي تثير الجمال في النفس، وهنا لا بدّ لي من القول إنه لا قيمة للعمل الفني إذا لم يترك انطباعاً في النفس.⁵⁶

وعند هذين المشهدين يُهيئ ابن شهيد إيشاده لينتقل إلى إبراز رأي عُتيبة في ذلك الإنشاد (فلما انتهيت تأملني عتيبة) هذا يعني إصغاء عتيبة لذلك الإنشاد، والمفردة (تأملني) توحى بترaxي الزّمن لأنّ فيها توقف النظر على ابن شهيد، وتفحص تلك الشخصية، هذا الإنعام فيه إعجاب من عُتيبة، لذلك يأتي الحكم بتوبيخاً لذلك التأمل والإعجاب (أذهب فقد أجزتك)، وهنا يفكّ السّحر، وتنتهي القصة بتوضيح الهدف⁵⁷ الذي من أجله نسج ابن شهيد قصته، وهو إثباته لذاته عن طريق نيل الإجازة من تابع امرئ القيس، هذه الإجازة تبرهن على إعجاب ابن شهيد بنفسه وتأتي لتأكيد صلة أدب المشرق بالمغرب، وتطلع ابن شهيد إلى رئاسة الأدبين، ولا شك في ثقافته الواسعة التي سخرها لخدمة نسيج القصة، كما تأتي هذه القصة عربية الشكل والمضمون لاستناد شكلها إلى الأسطورة العربية القديمة بوجود توابع للشعراء في وادي عقر، واستقائها فكرة رحلة الإسراء والمعراج في نسج أحداثها، كما أنّها أنتت عربية المضمون لما حوته من قص وشعر مرتبط بحضارة الأندلس من جهة، وبالتراث المشرقي من جهة أخرى.

4-جمالية التوصيل⁵⁸

وما هذه القصة إلا رسالة موجهة إلى الجمهور، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، كيف استطاع ابن شهيد إيصالها إلى المتلقي؟

لقد استطاع ابن شهيد إيصال فكرته للمتلقي من خلال تألف التركيب، ووضوح اللفظ في رواية أحداث القصة التي أبرزت غير قليل من جوانبها، واضعاً نصب عينيه قضية التوصيل، والتأثير في

⁵⁶ (المؤنف الأدبي) ص 13 - كلّ نص لا يقدم رؤية جديدة تدعو إلى التغيير والتقدم نحو الأمام من أجل الخنوع والإنسان بعد نصاً متخلفاً وردتاً.

⁵⁷ (فن النسخة القصيرة) ص 50 - فقد بين أهمية المغزى في بناء القصة فقال: يدونه لا يمكن أن يتحقق للحدث الاكتمال لأن أركان الحدث الثلاثة هي الفعل والفاعل والمعنى.. ولا قيمة للفعل والفاعل إذا لم يكشفوا عن الحدث.

⁵⁸ (جوانبات الأسلوب) ص 21 - التوصيل: هو العلاقة بين المبدع والمتلقي.

وما أودّ التنبيه عليه هو تلك الحالة الانفعالية المسماة بالتوصيل، والتي استطاع ابن شهيد خلقها في إطار جمالي عن طريق لغة الحوار التي تجذب القارئ، وتجعله ينفغل مع الشخصيات والأحداث، ومن خلال خصوصية خياله، فجمالية الأسلوب كانت سبباً في إيصال الفكرة للمتلقي.⁶⁰

وابن شهيد لم يشبع الحاجة المعرفية للمتلقي بل أشبع جوعه الفنيّ باستخدامه للحوار بصفته عَصَراً فنياً هاماً في القصة، وهو لم يركز على الزمان الذي يمتد على مستويين الأول، حديث مع زهير عن توابع الشعراء والكتاب، ورحلته التي لم يُحدّد زمنها، والثاني: لقاءه بتابع امرئ القيس ونيل الإجازة منه، وهنا لا بدّ لي من القول: إنّ هذه القصة هي قصة شخصية أولاً وأحداث وسلوك ثانياً محورها ابن شهيد وهو نقطة الارتكاز فيها.

5- النتائج التي توصل إليها البحث.

أما ما أخذ على نفسي في هذا التحليل فهو أنني عندما وقفت على فكرة التشابه والاختلاف بين ابن شهيد وأبي تمام والمتنبى في رسم صورة القوة لم أعمق في التحليل لقلة خبرتي من جهة،

١٤ ص ١٤: إذ بين أهمية اتّصال في العمل الأدبي بقوله: رتقيب هذه المسألة أو غيابها هو في المحصلة غياب جوهر الفن.

(المقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي) ص 252-253 - انظر جمالية النلقي.

⁽⁶⁾ (ديوان ابن شهيد) ص 44 - الحديث عن الفتنة.

⁶² (فن الرسائل في الأدب الأنثسي) ص 148 - إذ بين هدف ابن شهيد من كتابة رسالة التواضع والذم.

6.3 (الاعانة الخطاب وعلم النص) ص 279 - دلّاب مظهران أحدهما خارجي ينشئ بعلاقة الأدب بالواقع والآخر داخلي ويعني العلاقة بين الحدث والشخصيات ونقطة حواسها، والطرف المكانية والزمانية والكيفية، وضرورة حبكة الأحداث.

عن تاريخ الطب عند العرب:

الطبيبان:

"ابن رضوان" و "ابن بطلان"

د. شاكر مطلق

نقدم شخصية الطبيب المصري "ابن رضوان" -أبو الحسن علي- والطبيب البغدادي "ابن بطلان" -أبو الحسن المختار- من خلال ماوصل إلينا عنهما من كتابات الطبيب المعروف "ابن أبي أصيبعة" -موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي- صاحب المؤلف الشهير "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، وهو من مواليد دمشق عام 600/هـ. وكان والده من أمهر الكحالين فيها. تلقى علوم الطب عن والده في شتى أمراض العيون، ثم سافر إلى القاهرة والتحق بالمارستان الناصري الذي أنشأه "الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي"، ثم عاد إلى بلاد الشام تلبية لدعوة من "عز الدين" وهو في صرخد -وعز الدين هو الطبيب السويدي -نسبة إلى السويداء في جبل العرب- الذي عمل في دمشق عند الملك المعظم ابن الملك العادل صلاح الدين الأيوبي في أربعة أماكن: البيمارستان النوري الكبير، بيمارستان باب البريد، قلعة دمشق، وفي المدرسة الذخايرية التي درس فيها -ومكث فيها حتى وفاته في عام 668/هـ. وتنسب إلى مذهب الدين محمد بن عبد الرحمن.

ألف موسوعته هذه التي احتوت على مايزيد على أربعمئة ترجمة لكبار الأطباء من إغريق ورومان وهنود وعرب ومسلمين وسريان وغير عرب وغير نصاري، ومن ظهر في بلاد المشرق والمغرب.. وكان قد ألفه لأمين الدولة، وزير الملك الصالح، وقام المستشرق الألماني مولر "Mueller" بنشره عام 1884م-1299هـ. نقلًا عن نسختين خطيتين عثر عليهما في مصر، وقد صدر هذا الكتاب، لأول مرة، في مصر بطبعة حجرية عن المطبعة الوهبية (نقله عن النسخ الموجودة في بعض خزائن الكتب وصححه العبد الفقير إلى عون الله ورحمته امرؤ القيس بن الطحان)، ويقع في جزأين،

شياً مسناً، برفقة الطبيب ثابت بن سنان وكان أصغر منه سناً- اللقاء "عضد الدولة" -من ملوك الديلم في القرن العاشر - عند دخوله بغداد، حيث سأل هذا:

(من هؤلاء؟ قالوا: الأطباء، قال: نحن في عافية ومابنا حاجة إليهم... فقال (سنان): أطل الله بقاء مولانا الملك، موضوع صناعتنا حفظ الصحة، لا مداواة الأمراض والملك أحوج الناس إليه. فقال (عضد الدولة) صدقت.

وقرر لهما الجاري السني وصارا ينوبان مع أطبائه) اه. عيون الأنباء ص308.

وقد اهتم "ابن رضوان" كثيراً بالناحية الأدبية -المسلكية لمهنة الطب -وهو ما يعرف اليوم باسم (آداب المهنة) - فخصها بدراسات ومؤلفات عديدة نجد فيها مرجعية استوعبت الموروث الإغريقي (أبقراط) وأضافت إليها إسهامات هامة. وأهم ماورد عنده في صفات الطبيب الفاضل:

1- أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء وحسن الذكاء، جيد الرؤية، عافلاً ذكوراً، خيّر الطبع.

2- أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثياب.

3- أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبيح بشيء من أمراضهم.

4- أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتزمه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

5- أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

6- أن يكون سليم القلب، غفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباليه من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعداء فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

7- أن يكون مأموناً، ثقة على الأرواح والأموال، ولا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه (عيون الأنباء...).

ثم قال: (المعلم لصناعة الطب هو الذي اجتمعت فيه هذه الخصال بعد استكمالها صناعة الطب والمُتَعَلِّم هو الذي فراسته تدل على أنه ذو طبع خيّر، ونفس زكية وأن يكون حريصاً على التعليم، ذكياً ذكوراً لما قد تعلمه).

وقال أيضاً: (البدن السليم من العيوب هو البدن الصحيح الذي كل واحد من أعضائه باق على فضيلته، أعني أن يكون يفعل فعله الخاص على ما ينبغي) اه.

وكان "ابن رضوان" منسجماً في حياته وعمله مع هذه القوانين الأخلاقية التي يطالب الطبيب بأن يتميز بها ويطبقها، وكتب في (شرف الطب وأدب الطبيب) وهو يعلمنا في سيرته بكيفية تعلمه الطب وفي ذلك يقول:

(إنه لما كان ينبغي لكل إنسان أن يتخير ألبق الصنائع وأوفقها له، وكانت صناعة الطب تتأخم الفلسفة -طاعة الله عز وجل، وكانت دلالات النجوم في مولدي تدل على أن صناعتي الطب (1)،

تسطع على الغرب) والذي عنوانه الصحيح هو:
(شمس الله فوق الغرب) فتأمل!

■ مراجع البحث:

أهم المراجع الأجنبية (الألمانية خاصة):

- 1- (أطباء العين العرب) للعالم الشهير يوليوس هيرشبيرغ (J.Hirschberg) بمساعدة لبيرت (J.Lippert) وميتقوخ (E.Mittwoch) صدر في لايزغ -ألمانيا (Leipzig) عام 1094م.
- 2- (الطب في الإسلام) المستشرق الألماني م أولمان (M.Ullmann) -هو إهداء شخصي إلى بخط المؤلف- ويشكل القسم الأول من المجلد المتمم السادس للفصل الأول حول الطب في الشرق الأدنى والأوسط، وذلك ضمن (موسوعة الشرق) التي أصدرها قديما (ب شبولر - B.Spuler)، وصدرت هذه النسخة من الكتاب في ليند وكولن (كولونيا) عام 1970م.
- 3- الكتاب المترجم المعروف تحت عنوان (شمس العرب تسطع على الغرب) وهو في الأصل (شمس الله تسطع على الغرب) للباحث د.سيغرد هونكه (Dr. S.Hunke) صدرت الترجمة العربية عن دار الآفاق الجديدة بيروت - الطبعة السادسة 1981. ونظما فاروق بيضون وكمال دسوقي.
- 4- كتاب خمس رسائل لابن بطلان نشره (ماكس ماير هوف) M.Meyerhof وشاخت (Schacht) عن المناظرات الطبية -الفلسفية بين ابن بطلان وابن رضوان -صدر بالإنكليزية في القاهرة عام 1937م.

أهم المراجع العربية:

- 1- (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) -تأليف ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق د.نزار رضا. من منشورات دار مكتبة الحياة بيروت -1965م.
- 2- الجزء الثاني من الكتاب أعلاه نقله أمرؤ القيس بن الطحان وصدر عن المطبعة الوهية الطبعة الأولى عام 1299هـ = 1883م في طبعة حجرية (وهو موجود في مكتبتني).
- 3- (الطبيب العربي علي بن رضوان) -د.سلمان قطاية- المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت الطبعة الأولى عام 1983م.
- 4- (تاريخ العلوم في الإسلام) تأليف أنور الرفاعي، دار الفكر -لبنان 1393هـ = 1973م.
- 5- (العلوم عند العرب) تأليف محمد إبراهيم الصبحي - صدر عن مكتبة النهضة مصر ومطبعتها -من دون تاريخ الأصدار -.
- 6- (الطب عند العرب) -حنيفة الخطيب- الأهلية للنشر والتوزيع بيروت (1986م).
- 7- (الموجز في تاريخ العلوم عند العرب) تأليف د.محمد عبد الرحمن رحبا -دار الكتاب اللبناني بيروت- الطبعة الثالثة (1981م).
- 8- (تاريخ مختصر الدول) -تأليف غريغوريوس الملطي المعروف بابن العربي- بيروت (1958م).
- 9- (تاريخ الحكماء) -جمال الدين القفطي -لايزغ/ ألمانيا (1903م).

((تحفة الملك العزيز بمملكة باريز))

هشأ أدب الرحلات

للسفير إدريس إيس إدريس العمراوي

تقديم وتعليق د. زكي مبارك

عرض د. مصطفى محمد العبدالله

لم يكن ابن بطوطة المغربي الوحيد الذي تجول في مختلف أصقاع العالم ودخل أقاصي بلاد المشرق ومجاهل إفريقيا وظلت لنا أخبار أسفاره بفضل عناية ابن عنان الذي أمر بجمع هذه الأخبار وتصنيفها. كما أن هناك العديد من الذين سافروا وتجولوا في أصقاع العالم لأسباب متعددة، وقد صنف الأستاذ محمد الفاسي هذه الرحلات إلى حجازية، وسياحية، ودراسية، وأثرية، واكتشافية، وزيارية، وسياسية ومقامية، وقبلالية، وفهرسية، وسفارية، وحول هذا الصنف الأخير من الرحلات، إلى رحلات السفراء، يوضح لنا الأستاذ الفاسي: (برز المغاربة في هذا النوع من الرحلات، ولم يؤلف أحد من العرب بقدر ما وضع المغاربة من رحلات سفارية وكلها كتبت في العصور الحديثة أي ابتداء من السعديين).

وتعد رحلة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا من أهم رحلات الأدب التي نجم عنها وثائق أدبية وإنسانية كان لها الأثر العظيم في تطور الفكر العربي الحديث. وكان الطهطاوي أول مؤلف عربي في العصر الحديث يكتب عن أوروبا ويكشف القناع عن محيا هذه البقاع.

لقد أقام الطهطاوي في الديار الفرنسية نحو خمس سنوات للدراسة والتتقف والاطلاع. وقد نالت رحلة الطهطاوي إلى فرنسا عناية وشهرة ومجداً لكونها ترتبط بمكانة الطهطاوي العلمية والأدبية في مصر النهضة، وما حظيت به رحلته من عناية وتقدير من السلطة الحاكمة في مصر وخاصة من محمد علي الذي اطلع على ما ألفه وكتبه الطهطاوي، فأعجب به وأمر بترجمته إلى التركية والعربية وطبعها باللغتين وتوزيعها بعد طبعها على الدواوين والوجوه والأعيان، والاستفادة منها في المدارس المصرية. وقد تم طبعها في مطبعة بولاق عام 1934. ونذكر منها المؤلف الشهير ((تخليص الإبريز

كراسي للجلوس وقهاو وحوايت تباع فيها الفواكه والحلاوي) ص44

ويصف المؤلف القطار والسكة الحديدية قائلاً (وهي من عجائب الدنيا التي أظهرها الله في هذا الوقت على أيديهم تحرير فيها الأذهان ويجزم الناظر إليها بديهة أن ذلك من فعل الجان وأنه ليس في طوق إنسان) ويصف لنا قاطرة القطار وصفاً دقيقاً وتفصيلاً.

ويقارن بين القطار والوابور (البخارة). ثم يتابع وصف رحلته من مرسيليا إلى مدينة ليون فيخصص لها حيزاً ويصفها قائلاً:

مدينة ليون: (وهي مدينة كبيرة أكبر من مرسيليا بكثير ولكنها مائلة للبدواة وأهلها أهل حرف، وصنائع، وفيها الفابريكات التي تخدم فيها الثياب الحريرية والقطنية التي تجلب من أرض الفرنسيس ويستعملونها ولا يخدم في غيرها من ذلك إلا القليل.... وهذه المدينة بين جبال صغار محيطة بها وبعض بنائها في الجبل. وقد ذكرنا لنا أن أهلها أهل اتحراف عن الدولة وخروج عليها، فلا يمر زمان إلا ولهم فيه ثورة.

وأرض الفرنسيين معروفة عند النصاري بكثرة الخمر وجودتها وكانت صحفهم تفتخر بذلك على الإنكليز فيذكرون: (إننا نبيع للإنجليز الخمر الذي يخرج من عنب بلادنا فنبخسهم لأننا نأخذ فيه ما لهم وعقولهم).

إقامة ابن إدريس في مدينة باريس:

وعندما وصل السفير العمراوي إلى مدينة باريس وصفها قائلاً: (وهذه المدينة كبيرة جداً من أكبر مدن الدنيا يقال: إن أعظم مدن الدنيا ثلاثة: قسطنطينية العظمى التي هي اصطنبول، حرسها الله وعمرها بدوام ذكره، والوندريز "المقصود بها لندن" وهي قاعدة ملك الإنجليز وهذه، على الفرنسيس يزعمون أن هذه المدينة أكبر من هاتين. أما أنا فلا أقدر أن أصف كبرها ولم أكن أظن أن في الدنيا مدينة قبل أن أراها مثل ذلك. وقد رأيت في مصر القاهرة وسلكت أكثر طرقها.... فقدرت أنها أكبر من مدينة فاس بأربع مرات وأظن أن هذه أكبر من مصر بثلاث مرات، فتأتي على هذا أنها أكبر من فاس بثلثي عشرة مرة.) ثم وصف المؤلف المساكن في باريس وعادات الأكل والشراب فيها وشوارع المدينة ونظافتها وحركة السير فيها ثم وصف لنا حديقة الحيوانات التي سماها جنان النباتات والوحوش وما تحتويه من أنواع الحيوانات والطيور والزواحف والأسماك وغيرها. وقد وصف لنا المؤلف دار السلاح التي تعد متحفاً حربياً يجمع فيه كل أنواع الأسلحة مع تطورها. وكذلك وصف دار السكة، وهي المكان الذي يتم فيه سك النقود المعدنية. كما وصف أيضاً دار الطباعة دار الكتب، وقصر فرساي والمسارح والألعاب التي كانت تتم فيها. كما تحدث عن عادات أهل باريس ومنها أن المرأة هي رئيسة البيت والرجل تابع لها، ويورد مثلاً باريسياً إذ يقول: "باريز جنة النساء وجهنم الخيل"، ويصف المؤلف مدينة باريس بالمدينة التجارية إذ يقول: (وأكثر تكسب أهل هذه المدينة من التجارة. والتجار عندهم معتبرون اعتباراً زائداً، وهم ركن من أركان الدولة، وكلما زاد مال الرجل

رأي في المسألة التراثية

د. محمد أحمد النابلسي

إن التراث هو القيمة المرجعية الأساسية للأمة. لذلك تعمل الأمم المستحدثة بصورة هجينة على اصطناع ومحاولة خلق تقاليد تشكل لها ماضياً يمكن مقارنته بالتراث. لذلك تشغل المسألة التراثية الأمم كافة بما فيها تلك التي تفتقر لما يمكنه أن يستوفي شروط ما يسمى بالتراث. خصوصاً أن الاهتمام بالتراث يتجاوز أبناء الأمة كافة إلى غيرهم. فالسياح لاكتتمل زيارتهم لبلد ما إذا هم لم يزوروا متاحفه ومعالمه الأثرية والتاريخية، حتى باتت متاحف بعض البلدان تلجأ إلى الاستعارة وعروض الإعارة والسرقه والاستيلاء ووضع اليد بل واصطناع المتاحف. على سبيل المثال فإن زوار المتحف القومي الأميركي ينقلون دهشتهم لعدم احتواء هذا المتحف على ما يمكن تسميته بالآثار أو بالتراث. حتى إن مدخل المتحف يحتوي على مكتب بريد من طراز مجمعات رعاة البقر لما يعض عليه سوى بضعة عقود.

المسألة التراثية هي هاجس إذاً، وهي هاجس إنساني لا يهم فقط الأمة صاحبة التراث بل يهم الإنسان عموماً الذي يعيش ثمار تراكمية المعارف في التراث الإنساني بحضارته المتعاقبة المختلفة. وتراثنا العربي هو جزء من أهم أجزاء هذا التراث الإنساني. لذلك تعرض هذا التراث للسرقه على عدة أصعدة. فقد ترجمت بعض مؤلفاته لينتقل مترجموها صفة المؤلفين، كما مارس الاستشراق صنوفاً عديدة من السلب الثقافي لهذا التراث. أما السرقه المباشرة فمثالها ما أورده محمد كرد علي في كتابه "خطط الشام" إذ يقول: من المصائب التي أصيبت بها كتب الشام، أن بعض دول أوروبا ومنها فرنسا وبريطانيا وهولندا وروسيا، أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً من تراثنا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان قومنا ولاسيما من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهدي في الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب. فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ماتحت أيديهم أو سرقه ما عند غيرهم والتصرف به وكأنه ملكهم. وحدثنني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل

للتراث الإسلامي حيث تذوب كافة الفوارق القطرية والعرقية في دولة الإسلام. أيضاً يسقط هذا التعريف لدى مراجعتنا للصراعات، ذات الطابع العرقي، داخل الدولة الإسلامية في حينه. كما نصادف تعريفات بالغة الحساسية لهذا التراث بحيث ينطوي بعضها على إدانة ذات طابع عدواني. وهي عدوانية تكمن وراء رفض بعضهم لكل محتويات هذا التراث. هذه العدوانية التي تقترب بسذاجة من الحيلة الدفاعية المتمثلة بـ "التوحد بالمعتدي" لغاية الوقوع في الأسر العقلي للاستشراق.

إن تحديد مفهومنا لماهية هذا التراث يقتضي بعض الشرح المدعوم بالأمثلة. كنا قد أشرنا إلى أن اللغة هي حبة الرمل التي تتكون حولها اللؤلؤة. بما يعادل إخطاء اللغة دور الأساس في البناء الحضاري. بما يطرح المسألة اللغوية كمسألة مركزية في الحضارة وفي تراثها. كما تزداد حيوية تأثير هذه المسألة في تراثنا نظراً للعمر المديد للغة العربية. هذه اللغة التي حافظت على بنينها الدلالي - الفلسفي، دون تغييرات تذكر، مقابل اضمحلال، وزوال، لغات الحضارات الأخرى من الإغريقية إلى اللاتينية. أما العبرية فإنها تكاد تفقد أثرها في اللغة المتداولة في إسرائيل. من هنا اعتقادنا بأن اللغة العربية لم تحفظ لنا تراثاً فحسب بل إنها حالت دون تحويله إلى إرث لأنها أبقتة على قيد الحياة. هذه ليست مغالاة إذا نحن نظرنا إلى المواقف القانونية والسياسية التي تعتمدها الدولة الفرنسية لحماية لغتها، حيث تسن هذه الدولة القوانين لمعاقبة من يستخدم كلمات إنجليزية. أما على الوجه الآخر للعملة فيبرز السؤال هل بالإمكان بناء حضارة أو مجرد دولة من دون لغة؟ الأجوبة عديدة ومائلة للعيان. فقد استعارت الولايات المتحدة اللغة الإنجليزية فاضطرت لاستعارة المنطلقات الإنجليزية في رؤية الآخرين ومعها الأسلوب الإنجليزي في تخيل الزمان والمكان. حتى أنت الولايات المتحدة ابنة شرعية للدولة صاحبة اللغة. من هذا الواقع جهد الفرنسيون لدعم انفصال مقاطعة كيبيك عن كندا. من هذا المنطلق أيضاً فإن كل محاولات النيل من تراثنا وأمتنا كانت تمر بمحاولات النيل من اللغة العربية.

من أوائل هذه المعادلات نذكر محاضرة المستر ولكوس في القاهرة (1892) وفيها: ".... إن السر في تخلف المصريين وعجزهم عن الابتكار يكمن في اعتمادهم اللغة العربية....". إن الموضوعية العلمية تجيب بأن اعتماد اللغة العربية (أو اللغة الأم بالنسبة لأي شعب من الشعوب) لا يمكنه أن يكون مصدراً للتخلف والعجز عن الابتكار. من الدلائل على ذلك ارتفاع نسبة الانتحار بين شعب بريتانيا الفرنسية عندما اضمحلت لغتهم مما جعلهم يحسون بفقدان الهوية والتكامل الذاتي. في المقابل فإن الانغلاق الثقافي في عصر الاتصالات هو المعوق الرئيسي للتطور. فالحفاظ على الهوية العربية والتمسك بلغتها يجب ألا يصرفنا عن الانفتاح على اللغة الإنجليزية بوصفها، مرحلياً، أداة اتصال عالمية الانتشار.

بعد هذه الأمثلة المختصرة يمكننا أن نقول إن اللغة هي عنصر الخلق الأساسي للحضارة التي تحولها إلى كائن حي يموت بموت الحضارة التي نسجتها. لكن اللغة العربية تمكنت من الاستمرار ككائن حي فأبقت بذلك على العناصر الحضارية العربية من دول وكيانات تعتمد العربية كلغة أم

للدول والجماعات الناطقة بالعربية مع ما يرافق هذا الوجود من استمرارية طقسية لتراث الحضارة العربية. هذه الاستمرارية هي المدينة للإسلام لأنه هو الذي حفظ اللغة العربية حياتها. أما ما تبقى فإنه مسألة لغة سائدة تمكنها سيادتها المرحلية من تحقيق المغريات لاعتماد نظامها الفكري بصورة شمولية تمكنها من تصديره للشعوب الأخرى. ولعل الولايات المتحدة من الأمثلة المعاصرة على ذلك. حيث لا توجد حضارة أميركية وإنما هناك نظام حضاري من بناء مجموعات عرقية مختلفة. مع التأكيد على ليبيرالية الحضارة العربية في القرون الهجرية الأولى. هذه الحضارة التي لم تفرض نظامها الفكري والاعتقادي فرضاً مباشراً أو غير مباشر عن طريق فرض التغييرات الحيوبوليتيكية أو افتعال الحروب أو حتى تشويه حضارات الآخرين وتزييفها.

ما هو التراث إذاً؟ إن التعريف الذي نقترحه، انطلاقاً مما عرضناه أعلاه للتراث، هو التالي: "هو تجارب السلف التي تصل إلينا من خلال الآثار التي تركوها في المكتبات والمخطوطات والمرويات وفي المقابر والمتاحف أو غيرها من المنشآت. مع التركيز على ماتحافظ عليه هذه الآثار من استمرارية فكرية وإنسانية تجعلها مؤثرة".

2- القضية التراثية

وفي المقابر والمتاحف أو غيرها من المنشآت. مع التركيز على ماتحافظ عليه هذه الآثار من استمرارية فكرية وإنسانية تجعلها مؤثرة".

2- القضية التراثية

3-التزييف في التراث العربي.

يتعلق التزييف في تراثنا ببواعث وأهداف مختلفة يمكننا تصنيفها وتوزيعها على الخانات التالية:

أ- أخطاء الرواة سواء أكانت مقصودة أم غير مقصودة.

ب- الأسباب الدينية وتقسم إلى:

1- الصراع بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى.

2- الصراع بين المذاهب والفرق الإسلامية.

3- الترسبات الحضارية التي انتقلت مع أصحابها إلى الإسلام.

4- الأسباب السياسية - الإسلامية.

ج- الصراعات الحضارية وبدورها تقسم إلى:

1- الشعبية (قديمة ومحدثة).

2- الاستشراق (كوجه استعماري).

3- الأخطاء اللغوية.

د- الانتحال بأنواعه التالية:

1- نسبة المؤلفين العرب لأنفسهم مالمس لهم (ثبتت ندرتها).

2- نسبتهم ما هو لهم إلى غيرهم (لإعطائه وزناً).

3- قيام غيرهم بنسبة أعمالهم إليه (الأمثلة الموثقة أصبحت كثيرة).

4- أن ينسب لهم زوراً مالم يرد على ألسنتهم ولا في كتاباتهم.

هـ- القراءات الانتقائية في الاتجاهين:

1- قيام العرب بانتقاء ما يروونه مناسباً وتجاهل غير المناسب.

2- قيام المستشرقين بانتقاء ما يرون فيه إدانة حضارية للعرب وتجاهل غيره.

و- القراءة المزيفة والتفسيرات الخاطئة للنصوص التراثية.

فإذا راجعنا هذه البواعث وحاولنا استعراض الأمثلة حول كل باعث منها فإننا سنجد أنفسنا نستعرض التاريخ الشامل للأمة العربية. مع مايتخلل هذا التاريخ من نسايات (فترات تاريخية منسية) بدءاً بنساية العصر الجاهلي وماقبله وانتهاءً بالنسايات التي تعود إلى أجزاء مفقودة من تراثنا المسروق أو الموهود بجهلنا. في المقابل فإننا نحتاج إلى محو هذه النسايات كي نتمكن من ترسيخ توازن شخصيتنا العربية دون أية حاجة للتوحد بالآخرين.

4- خطاب الجنون في التراث العربي

يتركز اهتمامنا بالتراث في ميدان اختصاصنا وهو حقل الدراسات النفسية. وتقويم التراث من الناحية العلمية يهتم أول ما يهتم بتحديد العوامل الآتية:

أ- حجم المادة العلمية الموثقة الباقية منه.

ب- مدى المعاصرة والإسهام الراهن لهذه المادة العلمية.

ج- مقدار الأثر الذي يمارسه التراث راهناً في حضارة الأمة.

د- فعالية محتواه في الإسهام بتطور العلوم.

والواقع أن أياً من هذه العوامل لم يحدد بعد بالدقة الكافية. كما يضيق المجال بنا لعرض التقديرات المعروضة والمنشورة حولها. لذا سنعمد إلى متابعة مفهوم الجنون في تراثنا منذ الجاهلية إلى اليوم. فإذا بدأنا بالعصر الجاهلي فإننا نجد محدودية ضوابط الحياة الغريزية المسؤولة عادة عن القلق وخصوصاً لجهة الجنس والحياة الجنسية، إذ إن قيم المجتمع الجاهلي كانت قيماً رجولية مقياسها مدى فعالية الرجل في دعم استمرارية قبيلته. فكانت تساميات الجاهلية تتعلق بالفروسية والشجاعة والكرم والقدرة على التحمل الجسدي والفحولة، فإذا ما عدنا إلى مروييات العصر الجاهلي وجدنا أن الاضطرابات النفسية في حينه اقتصرت على الهستيريا لدى النساء وعلى إدمان الخمر والحمق من طول معاشرته النساء ومخالطتهم، وبمعنى آخر فإن العصر الجاهلي قد اشتكى ودون من الاضطرابات النفسية تلك التي تشكل إعاقة للرجل عن القيام بالأدوار التي يطلبها منه مجتمعه القلي.

وباعتمادنا معايير التقويم المعروضة أعلاه نلاحظ أن حجم المادة الموثقة من تراثنا الجاهلي ضئيل جداً. لكنه يتمتع بجرعة من الراهنية والمعاصرة تجعله يمارس تأثيراً مستديماً ومستمرأ إلى اليوم. وفيه تحتل قيم الجاهلية مكانة بارزة في جهاز القيم العربي المعاصر. في حين أصبحت الممارسات الغريزية -الجاهلية موضع تحريم ديني واستنكار اجتماعي. فلو أننا راجعنا مفهوم الجنون في العصر الجاهلي لوجدناه معرفاً على النحو التالي: إنه العجز عن التكيف مع الواقع الاجتماعي - القتالي والانسحاق المبالغ وراء ممارسات تفقد الشخص قدرته على الدفاع عن قبيلته وعن مكانتها.

بالانتقال إلى العصر الإسلامي الأول نجد أن المشركين قد عملوا على إلصاق تهمة الجنون بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه. فلما انتشر الإسلام وجدنا تصنيفاً خاصاً للاضطراب العقلي إذ نلاحظ ثلاث فئات: 1- الممسوسين من الجن و2- الحمقى و3- المجاذيب.

مع العصر الأموي ومع اتساع الفتوحات الإسلامية دخلت تعديلات عديدة على الحياة الاجتماعية اليومية وانتقلت إليها بعض العادات الاجتماعية المنقولة عن مجتمعات أخرى. في حينه بدأت بالظهور حاجة المنقطعين عن الواقع للدعاء بأنهم نسخة عن إحدى الشخصيات الهامة (على غرار ادعاء بعض المرضى المعاصرين بأنهم نابليون أو هتلر... الخ) وتمركزت ادعاءات المرض في ذلك

كتاب الحفاية بتوضيح الكفاية للبيتوشي عرض (تعريف)

الدكتور محسن إسماعيل محمد
طه صالح أمين آغا

لم تكن ذاكرة الزمن في القرن الثاني عشر من الهجرة ومطلع القرن الثالث عشر ترخر بذاك الكم الهائل من العلماء الذي حفظته لنا تلك الذاكرة في أيام عزها في القرنين الثالث والرابع من الهجرة.

وكان من أبرز وألمع العلماء الذين سجلوا حضوراً واسعاً في ساحة العلم والمعرفة آنذاك، وخطوا بأقلامهم مكانة لا تنسى في ذاكرة الزمن: البيتوشي (ت1211هـ)، ذلك العالم الذي خدم لغة القرآن بمؤلفات خالدة ما بقي للعلم محب.

واليوم أقدم تعريفاً بأهم كتبه ألا وهو كتاب: الحفاية بتوضيح الكفاية، وهو كتاب -كما سترى عزيزي القارئ- يدور حول حروف المعاني، وهو موضوع لا تخفى أهميته في الدرس اللغوي قديماً وحديثاً.

ومن الله التوفيق.

اسم الكتاب:

شرح البيتوشي منظومته (كفاية المعاني في حروف المعاني) شرحاً مبسوطاً مفصلاً، وسماه (الحفاية بتوضيح الكفاية)، ونصّ على هذا الاسم في خطبة الكتاب بقوله: "... ولما ثقفته بأنامل التقويم، وختمته بخاتم التتيم وصار حبلاً من مسد في جيد كل حسد سميته (الحفاية بتوضيح الكفاية) ومن الله استمد البداية... (1).

* دراسة مستلة من رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة صلاح الدين سنة 1414هـ - 1993م تقدم بها الطالب طه صالح أمين بإشراف الدكتور محسن إسماعيل.

وأكد في شرحه الثاني (صرف العناية) المشرح الأول واسمه: (الحفاية بتوضيح الكفاية) وذلك بنقل خطبة (الحفاية) بتمامها إلى (صرف العناية)(2).

معنى (الحفاية):

١ وردت (الحفاية) في المعجمات بمعنى: المبالغة في العناية بأمر، وكثرة السؤال عن حاله. جاء في (مختار الصحاح): "حفي" -بالكسر- (حفة) و(حفية) و(حفاية) بكسر الحاء في الكل. و(حفي) به -بالكسر- (حفاوة) بفتح الحاء، فهو (حفي) أي بالغ في إكرامه والطافه والعناية بأمره(3). وفي (اللسان): (حفي) بالرجل (حفاوة) و(حفاوة)، و(حفاية) و(تحفي) به و(احتفى): بالغ في إكرامه. و(حفي) به (حفاية): فهو (حاف)، و(تحفي) و(احتفى): لطف به وأظهر السرور به، وأكثر السؤال عن حاله(3).

قال الفراء: ويقال: فلان بي (حفي)، إذا كان معنياً. وقال الجوهرى: (الحفي): العالم الذي يتعلم الشيء باستقصاء و(الحفي): المستقصي في السؤال(4).

دواعي تأليفه:

نص البيهقي في تمهيد (الحفاية) على أن منظومته (الكفاية) نالت إعجاب الأدباء وفضلاء عصره، ووقعت في قلوبهم موقع الطلل من أقاحي الربا، فطلب منه بعض الفضلاء أن يضع عليها شرحاً يبين فيه موادها، ويوضح مفادها، ويصرح بما لمح إليه من شواهدا. قال البيهقي: "... طلب مني بعض فضلاء العصر، الهامرين أغصان الفضل أي هصر، أن أضع عليها شرحاً.. فبادرت لما رأيت من وجوب طاعته، وحرمة مدافعتة إلى وضع عجالة تكفلت بأداء ما أمر.."(5).

زمن تأليفه:

ألف البيهقي منظومته (الكفاية) سنة 1191هـ، ووضح شرحها (الحفاية) في السنة نفسها، في (الإحساء)، كما صرح به في نهاية (الحفاية) بقوله: "... تمت بإعانة الله هذه العجالة.. أول يوم من شعبان سنة ألف ومائة وأحدى وتسعين في (الإحساء) المحروسة مع تشتت الحال واشتغال البال"(6).

منهج الكتاب

بنى البيهقي كتابه (الحفاية) على: تمهيد، وخطبة، ومقدمة في حد الحرف، وخمسة أبواب هي

الباب الثاني: في الثاني: قال: "وهو ضربان: ضرب متفق عليه، وضرب مختلف فيه، والجميع ثلاثة وثلاثون حرفاً.. واكتفيت عن ذكر (هي، وهم) ضميري فصل استقلالاً بما ذكرته مما يشملهما وغيرهما من ضمائر الفصل في (هو)" (11). وقد أوردتها على ترتيب حروف المعجم، مراعيًا الحرف الثاني في ذلك.

ثم ختم الباب بخاتمتين، قال في الأولى: ذكرت هنا خاتمة تتعلق بالأحاديث والثانيات، نقلتها من أدب الكاتب لابن قتيبة، تنطوي على فوائد مجموعة، وهي تختص بدخول (من) على الحروف (12) وعرض في الثانية: دخول (الباء) على (الكاف)، ودخول حرفي (على) و(الكاف) على حرف الكاف (13).

الباب الثالث: في الحرف الثلاثي: قال: "ضربان: متفق عليه، ومختلف فيه، ولم أذكر (نحن) و(هما) و(هن)، لما ذكرته في (هو) ضمير الفصل." (14). ذكر فيه ثلاثة وثلاثين حرفاً عدا ضمائر الفصل.

الباب الرابع: في الحرف الرباعي: قال: "وهو نوعان: متفق عليه ومختلف فيه، وجملته: عشرون حرفاً، ولم أذكر منها (أنتم) الواقع ضمير فصل في نحو: (إنكم أنتم الظالمون) (15)، لما ذكرته في: (هو) فراجع (16).

ويضم الباب تسعة عشر مبحثاً، وخاتمة، وفي الخاتمة: قال: "هذه خاتمة للحروف الأحادية والثنائية والثلاثية والرابعة، في ما جاء منها: حرفاً، وفِعْلاً، واسماً. وتتبع ذلك فوجدت منه عشرين حرفاً، ذكرها السيوطي أوائل الفن الثاني من كتابه (الأشباه والنظائر) إلا (الهاء) (17).

الباب الخامس: في الخماسي: قال: "وهو أربعة أحرف، واحد متفق على حرفيته وهو: (لكن)، وثلاثة مختلف فيها، منها: (انتما)، و(انتن)، ولم أذكرهما لما ذكرته في (هو) والثالث: (الذي) (18). ولهذا جاء الباب على مبحثين مبحث (الذي) ومبحث (لكن).

ويختتم (19) البيهقي كتابه هذا بشرح أبيات خاتمة منظومته، ويبين فيها زمن تأليف هذا الشرح، وقد أسلفنا فيه القول.

ويرجو في الختام ممن يقع على هفوة أن يستره، ويسلك سبيل الإنصاف، ويسمح فيها بالتعويل على حسن التأويل، مستشفعاً بأحاديث نبوية في هذا الباب كقوله - صلى الله عليه وسلم -: (إن من يتبع عورة امرئ يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله) (20).

وعلى الرغم من رجائه هذا، لمن يتبع عيوبه في هذا الكتاب، فنحن ماضون في بيان ما يبدو لنا من المآخذ والهناات والأخطاء لأنه من صميم عمل المحقق عند تقديم أثر من الآثار المخطوطة إلى الدارسين.

بعد العرض المجمل للأركان الأساسية التي بنيت عليها (الحفاية) نأتي إلى بيان أبرز السمات

التي توضح منهجه:

1- إن كل باب من الأبواب الخمسة يشتمل على مباحث، لكل حرف مبحث، يتكلم فيه البيهقي على الحرف، يبين أقسامه، ومعانيه، ويذكر الخلاف في ذلك. وشذ عن هذا ضامائر الفصل: (هي، هم، نحن، هما، هن، أنتم، انتما، أنتن) فقد جمع كلها في الضمير (هو) فجعله مبحثاً لتلك الضامائر جميعها. وقد أشار إلى إهماله تلك الضامائر في أبوابها، وأحال جميعها إلى مبحث (هو) في الثاني. وقد جمع السين والشين في مبحث واحد.

وأدخل في كل مبحث عناوين باسم (تنبيه) أو (فائدة) أو (لطيفة) أو (تتمة) أو (خاتمة)، يذكر فيها معلومات متنوعة حول الموضوع، وقد يخرج عنه إلى موضوعات استطرادية، وقد يلي (التنبيه الأول) (تنبيه ثان) و(ثالث)، أو (تنبيه استطرادي). وقد تأتي (فائدة استطرادية) بعد (فائدة) (21).

2- اتبع الترتيب الهجائي في ذكر الحروف، أي على ترتيب حروف المعجم في الكتاب كله، وإن اعتمد على الجنى الثاني إلا أنه قدّم (متى) على (منذ) بخلاف المرادي الذي قدّم (منذ) على (متى) مخالفاً ترتيب المعجم.

3- ذكر آراء العلماء، وناقش طائفة كبيرة منها، وحكم عليها بالترجيح والرد، كما رسم منهجه في مقدمة المنظومة، بترجيح رأي على رأي، ومخالفة رأي من الآراء (22)، واصطنع أسلوب الجدل والحوار، وطريقة السؤال والجواب، يتصور أسئلة تطرح عليه، فيجيب عنها بأسلوبه: (فإن قلت...) أو (فإن قيل...)، ويرد عليها بقوله: (قلت...) أو (أجيب...) أو (فالجواب...).

4- أشار إلى الكتب التي استقى منها آراء العلماء من النحاة واللغويين والبلاغيين وغيرهم مثل: الكتاب لسيبويه (180هـ)، والمقتضب للمبرد (186هـ) ووصف المباني للمالقي (502هـ)، وشواهد التوضيح والتسهيل لابن مالك (672هـ) سأذكر فيما بعد في (مصادر الكتاب) في موضعه من هذه الدراسة جميع الكتب التي اعتمد عليها.

5- وقد يذكر آراء العلماء دون كتبهم، لأنه قد يأخذ آراءهم من غير كتبهم وقد يأخذ من كتبهم دون ذكرها لما للشهرة أو للاختصار، وربما استعمل عبارات عامة مثل: قال البصريون، والكوفيون، والمحققون، والمغاربة، وقوم من النحويين، وقوم، والجمهور، وبعض، أو بعضهم، وآخرون.

6- ذكر آراء عدد من العلماء لم يبلغوا درجة الشهرة منهم: أبو جعفر ابن زبير، ابن عجلون في شرح الشيبانية، ابن أبي العافية، أبو جعفر بن صابر من أهل المغرب، ابن أبي ربيع، جمال السمرمي، وغيرهم (23).

7- اتخذ نقله لآراء العلماء عدة أساليب منها: نقل نصاً، أو تلخيصاً، أو ما حصله، أو بقوله:

أخذنا من عبارة...، مثال ذلك تلخيصه لقول ابن هشام بقوله: (انتهى ملخصاً) (24)، أو (ما حاصله) قال: قال ابن هشام ما حاصله: "إنك إذا وقفت على القسطل الماضي بالسكون، فالفتحة فيه مقدرة حتى لو وصل بعده لوصل بها" (25).

هذا تعبير البيهقي عما فهمه من إنكار ابن هشام على من يخرج على الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة، ويترك الوجه القريب القوي (26).

8- ويختتم نقولاته من كتب الآخرين غالباً بقوله: (انتهى).

9- استعان البيهقي بنظمه في شرحه، لتلخيص معاني الحروف، أو جمع لغات مفردة من المفردات، أو عرض موضوع من الموضوعات، ليسهل حفظه وتذكره.

منها: تذييله لبيتين من نظم غيره في جموع القلة وفيه يختار مذهب الكوفيين:

وأثبتن (غرفاً) فيهنّ مع حجج لأهل كوفّة لابصريهم تفد (27).

ومنظومة ما يكتسب الاسم بالإضافة (28)، وبيت نظم فيه لغات الاسم (29) ومنظومة ما ليس له تعلق من أحرف الجر (30) ومنظومة في الأجوبة الثمانية (جواب) الأمر والنهي والدعاء والاستفهام والعرض والتحضيض والتمني والنفي والإشارة إلى الخلاف في الترتيب (31)، منظومة صيغ العموم (أربعين صيغة) (32)، منظومة ما جاء مؤنثه على فعلة (33)، منظومة أنواع النسب (34) أبيات من منظومة الكافي في العروض والقوافي (35) واستعان بمنظومات لغيره، كمنظومات المرادي وجمال السرمدي (36).

10- ربط موضوعات الحفاية بعضها ببعض ربطاً محكماً عن طريق إشارته إلى ما مرّ وما سلف وما سيأتي وما هو آت من المباحث، ولا سيما في الموضوعات التي تتكرر دائماً، مثال ذلك: و(صاح) مرخم (صاحب) وقد مرّ شذوذه (37). وفي اسمية (إذ ما) خلاف مرّ في (إذ) وفي (مهما) كلام سيجيء (38). و(أن) زائدة لوقوعها بعد (لما) كما مرّ (39)، و(أن المصدريّة) وسيجيئ أنها قد تعمل (40).

11- قد يخرج عن معاني الحروف إلى الاهتمام بمسائل نحوية ولغوية قليلة الورد في العربية، أو آراء نادرة للعلماء، يذكرها لإفادة المستزيد من الناشئة في النحو واللغة، مثال ذلك: ما أورده لتوجيه بعض من أقواله: قولي (ما ناب عن همز) يجوز أن يكون مصدراً من "همزت الكلمة" إذا أتيت فيها بالهمزة وأن يكون مرخم همزة، وهو وإن لم يكن موضع الترخيم، إلا أنه ورد في أشعارهم على قلة، قال امرؤ القيس:

وعمر بن نرمام الهمام إذا غدا
بصارية يمشى كمشية قسورا

فحذف الهاء من (قسورة) (41).

وفي إيراده (أمل) بالتشديد في منظومته، يقول: وقولي (أَمَلًا) بالتشديد وبالتخفيف بمعنى،

وفي الشرح يقول: لا عاش مؤدبي عيشة من العيشات إلا عيشة مثل عيشتي وذلك لأن تأديبه هو الذي أبرز قذالي للصفاح، فكان الجزار قال على لساني لما طلع على شأني:

والأرض قد ثقلت عليها وطأتى
إذ عمها الأدبار والإقبال

ختم أمسحها فلولاً أن لى
عينين قال الناس ذا دجال

ولقد رمى القاضي عبد الوهاب عن قوس حالي، وأصاب، لما قال يشكو تشتت الحال:

أطال بين الديار ترحالى
قصور حالى وطول آمالى

كأننى فكرة الموسوس ما
تبقي مدى لحظة على حال

ثم يقول بعد عودة الوعي والفهم الصحيح إليه من بعد طول الشكوى وتذمر من الدهر وتقلباته: وقد كنت قدما أقضي العجب من شغف الدهر بتقديم الجهال الأراذل، وتأخير أهل الكمال الأفاضل، مثما قال القائل:...

ولم أف على سرّ تلك القضية.. إلى أن عثرت على سبب ذلك عثورا لا عثرة يطلب منها الإقالة في قول من قال:..

فصرت كأنى انشطت من عقال، أو شفيت من داء عضال، وأنشدت قول من قال:

رضينا قسمة الرزاق قينا
لنا علم وللجهال مال

فان المال يفنى عن قريب
وإن العلم باق لا يزال (52)

وفي أبيات رائعة يدعو فيها البيتوشي على نفسه، مصورا نفسيته في مرحلة المراهقة: "قلت في أيام التصابي وغلوا" شبابي:

لن عين أراحنى الله منها
وفؤاد علمته من فؤاد

تلك تغري بى الوشاة وهذا
فى مطاوي الحشا كجمر الرماد (53)

وقال في موضع آخر: "وقد غنى كثير في هذا الوادي، مع تباين مراده ومرادى" (54)، وقال في منظومته:

"(بما جئت عيني كيدي احترقت
ومن خطيئات جنتها أغرقت)

أي احترقت كيدي بسبب الذي جنته عيني من النظر إلى الوجوه الحسان، وأغرقت في بحر الدموع ومن خطيئات جنتها...، وقلت:

يا مولعا بهوى الأوتار والنغم
وهائما بجباه الغيد واللمم

مسرة تتج الأحران عن كسب لا خير في شبع يفضى إلى التخم (55)

وقد أودع في قصيدته في وصف (بيتوشي) (ترجمة ذاتية) ذكر فيها أن بيتوش هي مسقط رأسه، وفيها ترعرع، وصور حياته فيها، ومعاناته، وطموحاته، وآماله في أصعب ساعاتها في ديار الغربة (56).

في هذا الكتاب تجد ملامح بارزة من حياة البيتوشي وشخصيته ونفسيته وعلمه وثقافته لا تجدها في آثاره الأخرى، عدا (صرف العناية) الذي هو مختصر لـ (الحفاية).

16- ولع البيتوشي بالأحاجي والألغاز النحوية واللغوية والمعنوية، لذا نرى شرحه هذا قد امتلأ بالغازة والغاز غيره كالزمخشري والسخاوي وشرحه، وما أورده السيوطي في الأنبياء والنظائر.

ولا يقصد من إيرادها شيئاً سوى تحقيق أهداف علمية أو نفسية لإمتاع قارنه وإغرائه بالاستمرار في متابعة مباحث كتابه، وتكون زادا للطلاب في أسمارهم ومجالسهم.

ومثال ذلك: من ألغازه النثرية، قال البيتوشي: وفي نحو (لا أبالك) على القول بأن (اللام) هي الجارة لا المضاف، ألغزت بقولي: "ما اسم مضاف كما قد يعزى إلى سيبويه، وليس يعمل في ما عدا مضافاً إليه، أجب فلا زلت تهدي من في ضلال وتيه.. (57) ومن ألغازه الشعرية:

إنا هجرنا فيك طعم الكرى هل ان ترى في حالنا في المنام (58)

يا اماما على علا ه أو لو الفضل أجمعوا

أي حرف من الحرو ف يثنى ويجمع (59).

17- ترجم البيتوشي لجمع من أفذاذ علماء العربية، ليكون القارئ على علم بأقطاب النحو العربي وأعلامه الذين صنعوا النحو بعقريتهم الغدة. وهو الأهم: سيبويه (ت180هـ)، النضر بن شميل (ت204هـ)، قطرب (ت206هـ)، الفراء (ت207هـ)، الأخفش (ت211هـ) أو 225هـ)، أبو عمرو الجرمي (ت225هـ)، الزجاج (ت311هـ)، أبو جعفر النحاس (ت338هـ)، الفارسي (ت377هـ)، ابن جني (ت392هـ)، ابن بابشاذ (ت469هـ)، ابن السيد الطليوسي (ت521هـ)، الزمخشري (ت538هـ)، ابن مالك (ت672هـ) (60).

18- ولم يترك أسماء القبائل دون ترجمة أو تعليق، انظر مثلاً: وخزاعة: حي من الأزد سموا بذلك لتخزعهم، أي انقطعاهم عن قومهم وإقامتهم بمكة (61). وسليم: وهو كزبير: أبو قبيلة من قيس عيلان بالمهمل، وأبو قبيلة من جذام (62). ستصادف خلال النص أسماء قبائل عربية، علق عليها البيتوشي تعليقات متنوعة.

19- أتى بالفاظ مساعدة على زنة الأسماء والمفردات التي يوردها ليجنب القارئ الوقوع في خطأ قراءتها، ومثال ذلك كثير، منها: عمرو بن قمينة (كسفية)، وخزاعة (كفلانة) (63).

20- ولا يذكر علما من الأعلام إلا ويؤكد على صحة قراءته، وذلك بضبط الكلمة عن طريق الكتابة لا التشكيل، مثال ذلك: البطلوسي: بفتح الموحدة والمهملة، والمثناة التحتية بين واو ولام ساكنتين وبمهملة بعدها ياء النسبة وابن برهان: -يفتح الموحدة- (64) وغيرهم.

21- تطرق إلى ذكر كل صغيرة وكبيرة خارجة عن حروف المعاني، ولا يتركها دون تعليق أو تعقيب، إتماماً للقاعدة، وتوضيحاً للمتعلمين لأن غرضه تعليمي بحت، لذا نراه يولي (التذكير والتأنيث) اهتماماً بالغاً في الكتاب كله، وله منظومة في (المؤنثات السماعية) ارجع إليها إن شئت ضمن مؤلفاته في هذه الدراسة.

-نراه يعلل تأنيثه لفعل مسند إلى اسم مذكر كـ (سليم)، بقوله: "وذهبت في تأنيثه إلى القبيلة، ويورد شواهد شعرية على ذلك زيادة في البيان" (65).
-وفي تفسير "النوى" في قول الشاعر:

أحاذر أن تنأى النوى بغضوبها

يقول: "النوى: الوجه الذي ينوبه المسافر من قرب أو بعد، وهي مؤنثة لا غير، قاله الشمني في حاشية المغني تبعاً لما في الصحاح، ولم يتعرض في القاموس للتأنيث (66).

-وقد استطرد في تذكير وتأنيث (ألاً) في منظومته:

(ألاً) بتشديد وفتح مهمل
وليس منها الحق ألا تعلوا
وحرف تحضيض وليس يدخل
على وأتوني فأتى أهل

إلى معالجة التذكير والتأنيث بشواهد من آى الذكر الحكيم، والأحاديث، والأشعار، ما ينبئ عن حرصه في بيان كل ما هو مجد في تقديمه للقارئ وللناشئة في هذا الفن، وجاء بـ (تبيينه) لبيانه ومعالجته خير معالجة: قال فيه: "وقولي: (ألاً) بتشديد وفتح مهمل: بتذكير ضمير (ألاً) ذهاب إلى إرادة (الحرف). وقولي فيما بعد: وليس منها الحق: بالتأنيث ذهاب إلى إرادة (الكلمة) ومثل هذا كثير في كتب المتقدمين والمتأخرين ونظير ذلك... (67).

راجع (التبيين) تجد ما يشفي الغليل في هذا الموضوع، وأورد منظومة في "ما جاءت من المؤنثات على (فعلة) (68).

22- عني البيهوشي بالحدود البلاغية والعروضية واصطلاحاتها. وامتلاء كتابه بها، كالجناس اللاحق والجناس المضارع، والاستعارة، ومراعاة النظم، وبراعة الاستهلال، والتذييل والإيطاء في العروض، ولزوم ما لا يلزم.

مثال ذلك: قال: "وبين (أحشى) و(أعشى): (الجناس المضارع): وهو أن يختلف اللفظان بحرف واحد مع تقارب المخرج.. (69). وقد أورد مذاهب العلماء في تفسير الاستعارة بالكنائية بصورة

مفردات منظومة.

وقد يكون الاستطراد عند مسألة بعينها، فيخرج عنها لمناسبة عارضة إلى مسألة أخرى، يمعن في شرحها، ويستمر فيه إلى أن ينسى موضوعه الأصلي، ثم يعود إليه بعد ذلك مستدركاً، ولا يخلو كلامه حيث كان من فوائد وتوجيهات، ولا بد من القول فيه، خشية أن يكون في كلامه شيء من اللبس أو الغموض وإن كان كلامه فيه عرضياً، لا أصلياً.

وقد يربك القارئ في أول وهلة، ولكن سرعان ما يتعود طريقته الممتعة التي لا تترك القارئ يمل مباحثه المطولة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: وهو يعرب كلمة (الأنثافي) في بيت من المنظومة، ثم يأتي بثلاثة شواهد من الأبيات الشعرية لتعزيز قاعدة نحوية، ثم يذكر تمة ما يتعلق بـ (الأنثافي) من حيث المعنى فيفصل ثم يورد شاهداً من ثلاثة أبيات (85). وخروجه المفاجئ من موضوعات حروف المعاني إلى إيراد شواهد معنوية لتوضيح معنى ورد كما في إدراج الذموع فيأتي بشاهدين لأمري القيس والمتنبي على ذلك (86).

هذه هي طريقته لا يترك شيئاً يستعصي على القارئ إلا ويعالجه ويشبعه شرحاً معزراً بالشواهد القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والأبيات الشعرية والألغاز النحوية له ولغيره.

-ومع أن كتاب الحفاية يعد من أطول شروحه لمنظومته (الكفاية) إلا أنه يصف مباحثه بـ (العجالة)، قال: "أعلم أن الكلام على تحقيق أقسام اللام يؤدي إلى أطناب لا يليق بهذه العجالة (87). وفي (الفاء العاطفة) كلام طويل لا يليق بهذه العجالة (88). و(إلا) للاستثناء، وهذا هو معناها المشهور، وكتب النحاة متكلفة بتوضيح أقسامها وأحكامها، فلا تطيل هذه العجالة ببسط ذلك (89).

-ترك المؤلف بعض معاني الحروف لأنه كما يقول: (قد تكفلت بها كتب النحاة، ولا أخص بالذكر إلا ما هو محل الخلاف".

هذا ما قاله في معاني (النون)، فترك المعاني الثلاثة الأولى، نون التوكيد، والتثوين بأقسامه، ونون الوقاية، ولكن خصص (نون الإناث) بالذكر لكونها محل الخلاف (90). أو يتركها لشهرتها، كما أهمل معنى المجاورة لـ (عن) لشهرتها، وهو أشهر معانيها، ولذا لم أذكره في النظم (91).

-لقد فسّر البيهقي وجه أعراب جل أبيات المنظومة، وبعض ما استشهد هوبه، أو غيره من النحاة، كما عرض لتفسير كل ما مثّل به، ويلاحظ أنه يذكر فيما عرض لإعرابه كل الأوجه المحتملة فيه، ويبنه على الصائب منها، وبذلك يعد كتابه هذا تطبيقات في أوجه الإعراب لتعليم الناشئة، ولا سيما في تكراره تلك الأعراب غالباً إلى نهاية المطاف، وهذا الأسلوب خير الأساليب التي يتبعها المدرسون لتمكين المادة العلمية في نفوس التلاميذ، مثال ذلك إعرابه بيت المنظومة:

إن نفعت نكرى الفتى

نكرى: اسم للتذكير، وألفه للتأنيث: فاعل نفعت، والفتى: يحتمل أن يكون (فاعلاً) للذكرى، وأن يكون مفعولاً لها (92).

وقال في إعراب: (... يا قلب...): و (قلب): إما مبنى على الضم بناء يا جبال أوبي(93)، أو بناء يا غلام -بالضم- في يا غلامي، وقرئ به (قل رب احكم)(94)، و(رَبِّ السَّجَنِ أَحَبُّ إِلَيَّ)(95)، وأما مبني على (الفتح) كما قالوا: يا غلام، في يا غلاما، أصله: يا غلامي، وإما على (الكسر) والأصل: يا قلبي(96).

-لم يلتزم بترتيب معين لذكر أمثله وشرحها، فهو مرة يأتي بالأمثلة ثم يشرحها، ومرة يشرحها وفيما بعد يذكر الأمثلة، وكثيراً ما يشير إلى ذلك، فمثلاً يقول: تقدم مضمون هذه الأبيات في الشرح مفصلاً فراجع(97)، وفي قوله: ذكر شرح هذين البيتين في أول أقسام (لولا)(98).

-وفي شرح وتفسير المفردات قد يبدأ بمفردات البيت الثاني قبل البيت الأول ثم فيما بعد يعود إلى مفردات البيت الأول، كما في كلمة (ما أحراره) في البيت الثاني، و(عدى) في البيت الأول(99).

-وقد يتحدث في مبحث حرف عن حرف آخر قبل أن يأتي بمبحثها، فإذا جاء بمبحثها لا يتحدث عنها إلا قليلاً، ويحيل القارئ إلى موضع شرحها سالفاً، كما في (وى): "والمعروف فيما أسلفناه، في (وا) من أنها اسم فعل بمعنى (أعجب)(100).

-تمعنه في شرح الأبيات، وبيان مقاصدها، كما يتجلى في قوله في تفسير البيتين الآتين:

عَلَّ صُرُوفُ الدَّهْرِ أَوْدَ وَلَاتِهَا

يَدُلُّنَا اللَّعْمَةُ مِنْ لَمَاتِهَا

"وفي نفسي من تحقيق معنى البيتين شيء، ولم أعثر على من أوفاهما حقهما"(101).

-التكرار سمة من سمات أسلوبه في الشرح، وهو من أنجح أساليب المدرسين، لقد كرر أعراب كثيرة على طول الكتاب، وكرر لغات القبائل، وتكرار لغة خراعة في كسر اللام من المضمر، ولغة ربيعة في الوقف على المنصوب بالسكون. وكرر ضبط اسم ابن السيد البطلوس(102)، ولا غير في كل ما كرره وأعاده لأنه كما يقول في منظومته وفي منهج هذا الكتاب إنه ألفه لأطفال الفن، وكل ما يؤلف لهم أسلوبه يتغير عما ألفناه من كتب النحو عامة.

-عند تعداده لأقسام حرف من الحروف، قد لا يجمع جميع الأقسام في موضع واحد، ولا يرقم كل الأقسام بل يرقم القسم الأخير، كما فعله في أقسام (ما) الاسمية واكتفى بشرح غير المشهور كعادته، ك (النكرة غير الموصوفة، والمعرفة التامة) دون المشهورات، مثل: الموصولة والشرطية والاستفهامية، وأشار خلال ذلك إلى قسم شرحه آنفاً، وفيما بعد دون ترقيم الأقسام الستة يقول: (والسابع) من أقسام (ما) الاسمية هو (...). وهذا ما يؤخذ عليه في أسلوب شرحه لأنه لو اتبع الترقيم وجمع الأقسام في موضع واحد كان أفضل وأوضح.

-الإطناب في شرح معنى لفظة واحدة ترد في المنظومة أو في مثال أو شاهد كلفظة (حل)(103)، والاستطراد من إعراب لفظة إلى أحكام جمعها، والتفصيل فيه كما في لفظة (الأمانى): (أمانى) منصوب ب (رमित)، وألفه للاطلاق، وهو جمع أمنية لما يتمتع به الإنسان كالأحاجي والأحجية،

وياؤه في الأصل مشددة، لكن قد تخفف هنا كما قالوا: (ريّا الخلاخل) في الخلاخل، وبالتخفيف قرأ غير الجمهور، جمع على أفاعل، ولم يعتد بمد المفرد، قال أبو حاتم: كل ما جاء من هذا النحو مما واحده مشدد، فلك فيه التشديد والتخفيف، بل قال النحاس: الحذف في المعتل أكثر (104).

شواهد الكتاب

وشّح البيهوشي كتابه بآيات من الذكر الحكيم، وفقرات من الحديث النبوي الشريف، وأقوال الصحابة، وبالجيد الرائع من الشعر القديم، وأقوال العرب، لتكون شواهد تدعم رأيه وتؤيده وتدخل المتعة والرغبة إلى نفوس قرائه.

القرآن الكريم:

لقد حظيت آي الذكر الحكيم بنصيب وافر من الاستشهاد، بلغ عددها في (الحفاية) (830) آية قرآنية كريمة.

استشهد البيهوشي بأي الذكر الحكيم لمعاني الحروف، وأعمالها، وأهمالها.. فأتى كثيراً ما بموضع الشاهد من الآيات لأجل الإيجاز والاختصار، وقد يوردها بتمامها. وقد سها في ضم آيات متشابهة بعضها إلى بعض من غير قصد، ونسي أحرف العطف من صدر الآيات، وقد أثبت نصوصها كما هي في المصحف الكريم، وأشارت إلى مواضع السهو وما هو جدير بالإشارة، وسيجد القارئ الكريم تلك في الحاشية.

كان البيهوشي عالماً بالقراءات القرآنية، كما ذكرت ذلك في (تقافته)، لذلك امتلأ كتابه هذا بوجوه القراءات لكثير من القراء.

وقد لا يعزو القراءات إلى أصحابها، مثال ذلك: "زيادة الباء في اسم ليس. كقراءة بعضهم (ليس البر بأن تولّوا...) (150)"، وفي موضع آخر (151) يذكر إجازة ابن مالك أن تكون الكاف ومخفوضها مجازاً ومضافاً إليه، على اضممار مبتدأ كما في قراءة بعضهم (على الذي أحسن) (152)، أي برفع (أحسن) (153).

وربما يعول على قراءات غريبة وشاذة لم أقف عليها في كتب شواذ القراءات ولا في غيرها.

الحديث النبوي الشريف:

استدل البيهوشي بالأحاديث النبوية الشريفة بعد القرآن الكريم في دعم آرائه النحوية، وفي معاني الحروف وتعزيز ما ذهب إليه، سواء ما أورده هو وما نقله من آراء النحاة السابقين.

لقد بلغت (الأحاديث) التي استشهد بها في مواضع الكتاب أكثر من (100) حديث، وقد أعجب بابن مالك في الاستشهاد بالحديث، ولهذا نقل كثيراً من كتابه: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح.

الشعر:

عزز البيهتوشي آراءه ودعمها بالشواهد الشعرية الفصيحة والرائعة، فأورد في كتابه هذا ما يزيد على (930) تسعمائة وثلاثين بيتاً من الشعر والرجز، و(142) مائة واثنين وأربعين من أنصاف الأبيات، و(84) أربعة وثمانين بيتاً من أشعاره، من بين منظومة وأبيات شعرية.

وقد استشهد في دعم الآراء النحوية ومعاني الحروف بشعر الشعراء الأقدمين الجاهليين والإسلاميين الذين يوثق بعريبتهم، أما غيرهم كالممتنبي والمعري وآخرين بعدهم، فقد استشهد بشعرهم استئناساً لا لدعم قاعدة، أو استشهداً لتوضيح معاني المفردات أو للتذوق الأدبي.

وغالباً يعزو الأبيات إلى قائلها كما ذكره في منهجه وطريقته في التمهيد كما أسلفنا، ويعزو إنشادها إلى النحاة، مثل: أنشد سيبويه.. وأنشد الفراء.. وأنشد الكسائي..

فشواهد هي شواهد النحاة واللغويين الذين سبقوه، والذين نقل عنهم من البصريين والكوفيين وغيرهم.

ولم تكن الشواهد التي أوردها لدعم آراء نحوية فحسب، بل أورد الكثير منها في توضيح معنى من معاني مفردات منظومته أو في شرح الصور المجازية التي تضمنتها.

الأمثال وأقوال العرب:

وقد أورد في (الحفاية) ما يزيد على (12) اثني عشر مثلاً وقلولاً من أمثال وأقوال العرب في دعم الآراء والمعاني التي أتى بها في المنظومة وشرحها.

موقفه من البصريين والكوفيين:

للبيهتوشي آراء كثيرة منها ما وافق البصريين، ومنها ما وافق الكوفيين، ومنها ما وصل إليه باجتهاده وبصيرته، وقد عكف على آراء البصريين والكوفيين والمتأخرين، فانتخب من الآراء البصرية، ومن الآراء الكوفية والثالثة من المتأخرين، ويبدو جلياً ميله الظاهر إلى البصريين في ما رجحه وصوبه وما انتصر له. وهو في كل هذا اختط لنفسه منهجاً قائماً على الانتخاب والاختيار كغيره من النحاة المتأخرين.



■ هوامش البحث:

- | | |
|--|--|
| <p>4-اللسان (حفا)</p> <p>5-الحفاية ق 2 أ</p> <p>6-نفسه ق 382 ب</p> | <p>1-الحفاية ق 2 أ.</p> <p>2-انظر: صرف النفاية، ص4</p> <p>3-مختار الصحاح (حفا)</p> |
|--|--|

- 7-نفسه ق 1 ب
8-نفسه ق 2 أ
9-نفسه ق 29 ب
10-نفسه ق 130 أ
11-نفسه ق 107 ب
12-نفسه ق 237 أ
13-نفسه
14-نفسه ق 241 أ
15-الأبياء 51: 65
16-الخفاية ق 303
17-في الأشباه والنظائر 6/2 يقول السيوطي: إنها: (ثمانية عشر) حرفاً في حين يذكر لنا (عشرين) حرفاً، ومن ضمنها (الهاء) التي استتأها البيهقي من مجموعة السيوطي سهواً منه.
18-الخفاية ق 2 371 أ
19-نفسه ق 382 ب
20-نفسه ق 382 ب
21-انظر: الخفاية: على سبيل المثال ق 9 ب، ق 42 أ، ق 46 أ، 79 ب، 80 أ، 17 ب، 101 أ، 115 ب، 116 أ، 1247.
22-الكفاية، ص 5، الخفاية 25 ب
23-الخفاية: ق 38، 46، 134، 142، 297 أ، 371
24-نفسه ق 127 ب
25-نفسه ق 140 أ
26-انظر: المعني 710
27-الخفاية ق 110
28-نفسه ق 144
29-نفسه ق 45 ب
30-نفسه ق 55 ب
31-نفسه ق 94 أ

2-نفسه ق 214 ب
33-الخفاية ق 236 ب
34-نفسه ق 247
35-نفسه ق 368 ب
36-نفسه ق 1371
37-نفسه ق 1124
38-نفسه ق 129 ب
39-نفسه ق 131 ب
40-نفسه ق 129 ب
41-نفسه ق 116 أ. وسجد هناك تخريج البيت.
42-الخفاية ق 124
43-نفسه ق 104 أ
44-نفسه ق 130 أ
45-نفسه ق 77 ب
46-نفسه ق 79 ب
47-هود 11: 111
48-الخفاية 135 ب
49-انظر: البرهان للزركشي 1/481-483
50-الحاقة 69: 19
51-الخفاية: ق 302 ب-303 أ
52-نفسه ق 12، 13 أ، 14 أ
53-نفسه ق 132 أ
54-نفسه ق 65 ب
55-نفسه ق 209 أ
56-نفسه ق 379 أ
57-نفسه ق 69 ب
58-نفسه ق 33 ب
59-نفسه ث 228 ب. وانظر: ألفازاً أخرى له في الخفاية ق 218 ب، 357
60-انظر تراجمهم في: الخفاية: ورقة 144، 336 ب، 126 أ، 45 ب، 33 ب، 278 ب

- 85- نفسه ق 240 ب، 241 أ
86- نفسه ق 36
87 - نفسه ق 62 أ
88- نفسه ق 48
89- نفسه ق 308 ب
90- نفسه ق 85 ب
91- نفسه ق 59 أ ب
92- نفسه ق 126 أ
93- سبا 34: 10
94- الأنبياء 21: 112. انظر: مختصر ابن خالوية
93، التيسير 156
95- يوسف: 12: 33 (قال..)
96- الحفائية ق 288 ب
97- نفسه ق 327 أ
98- نفسه ق 362 ب
99- نفسه ق 327 أ
100- نفسه ق 233 أ
101 - نفسه ق 342 ب
102 - نفسه ق 3 ق 132 أ
103 - نفسه ق 103 أ ب
104 - نفسه ق 153 أ ب
105 - البقرة 2: 177
106- الحفائية ق 41 ب
107- الأنعام 6: 145
108- نفسه ق 7 ب
109- نفسه ق 354 ب
- 1275، 1200، 378، 281، 342 ب،
132، 282، 335 ب.
61- الحفائية ق 75 ب
62- نفسه ق 76 أ
63- نفسه ق 34، 75 ب
64- نفسه ق 3 ب، 34 أ
65- نفسه ق 76 أ
66- نفسه ق 124 أ
67- نفسه ق 305 أ
68- الحفائية ق 235 أ- 236 ب.
69- نفسه ق 12 أ، وانظر: الحدود الآخر ق (ك)،
15 أ، 16 أ
70- نفسه ق 6، 7 أ ب
71- نفسه ق 344 ب
72- نفسه ق 368 ب
73- نفسه ق 45 ب
74- نفسه ق 80 ب
75- نفسه ق 24 ب
76- نفسه ق 31 أ ب
77- نفسه ق 214 ب
78- نفسه ق 214 ب
79- الأنعام 6: 136
80- الحفائية ق 344 ب
81- نفسه ق 209 أ
82- نفسه ق 358 ب
83- نفسه ق 226 أ
84- نفسه ق 382 ب

ابن كثير كتاب التفسير

حمود الأرنؤوط

لا يشك أحد من الدارسين بأن الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي من أكثر المفسرين ثقة في نفوس المسلمين منذ العصر الذي عاش فيه وإلى أيام الناس هذه وعند أتباع المذاهب المختلفة لأهل السنة والجماعة، نظراً لما يمثلته هذا الإمام الكبير من الاعتدال والتوسط والواقعية، مما جعل العلماء وطلبة العلم يعتمدون عليه في بحوثهم ومؤلفاتهم ودراساتهم المتصلة بموضوع التفسير بشكل خاص، وعلوم القرآن بشكل عام، وجعل الكثير من العلماء يهتمون باختصاره وتلخيصه وخدمته، فمن هو ابن كثير، وما هي قيمة كتابه التفسير؟

أولاً: ابن كثير^(١):

هو الإمام الحافظ المؤرخ الفقيه عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصري الدمشقي. ولد في قرية (القرية)^(١) من قرى بصرى من أرض الشام في الجنوب الشرقي من سورية سنة

^(١) ترجمته في "المعجم المختص" للذهبي ص (74) و "ذيل المعجم" لابن العراقي (358-360) و "تعريف ذوي الغلالين" يذكر الذهبي من السلف "توفي الدين النفاصي ص (219) و "طبقات الشافعية لابن قاضي شعبة (113-115) و "إرث الوافر" لابن ناصر الدين ص (92) و "إنشاء المعجم بأماة المعجم" لابن حجر العسقلاني (45-47) و "الدرر الكامنة" (373-374) و "النجوم الزاهرة" (123-111) و "الذيل النام على دول الإسلام" للسجاري (259) و "طبقات الحفاظ" ص (529) و "شذرات الذهب" (397-399) بنحيفي وإشراف والذي وأستاذي فضيلة المنجذ الشيخ عبد القادر الأرنؤوط طبع دار ابن كثير بدمشق و "الدراس في تاريخ المدارس" (36-37) و "طبقات المفسرين" للداردي (110) و "البدر الصالح" للشوكاني ص (168) طبعة دار الفكر بدمشق، و "الأعلام" للزركلي (11) 320 و "معجم المؤلفين" لتكحاة (373).

^(١) قال ابن كثير في "التهذيب والنهاية" (31-14): وهي قرية من أعمال بصرى.

ورضاعه باختصار، فقام بسرد الروايات المتعلقة بموضوعه، معولاً في النقل على كتب السيرة النبوية ومستعيناً ببعض المصنفات الحديثة التي عنيت بإيراد أحاديث تخص موضوع الكتاب وما يتصل به من الموضوعات الأخرى، وقد قمنا بتحقيقه بالاشتراك مع الأستاذ ياسين محمد السوأس، ونشرته دار ابن كثير بدمشق سنة (1407هـ = 1987م)

5- الفصول في اختصار سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم:

ويعتبر من المصنفات المختصرة القيمة التي تحدثت عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم باختصار مفيد نافع للعام والخاص وذلك في القسم الأول منه، وأما القسم الثاني فقد تكلم فيه عن أحواله وشمالته وخصائصه صلى الله عليه وسلم باختصار نافع مفيد أيضاً، الأمر الذي جعله محبوباً إلى الناس جميعاً. وقد طبع هذا الكتاب أول مرة في مصر طبعة سقيمة غير محققة، ثم طبع للمرة الثانية في دمشق بتحقيق الدكتورين محمد العبد الخطراوي ومحيي الدين مستو، وهي طبعة جيدة محررة متقنة مفهومة نافعة، كتب لها الانتشار فأعيد طبعها عدة مرات آخرها عن دار ابن كثير بدمشق ومكتبة دار التراث بالمدينة المنورة.

وفاته:

مات ابن كثير يوم الخميس الواقع في 26/ شعبان/ من سنة (774هـ)، فخرجت دمشق كلها خلف جنازته، ودفن إلى جوار شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية، رحمه الله تعالى وأحسن إليه.

ثانياً: كتابه التفسير (*) :

واسمه "تفسير القرآن العظيم" وهو من خيرة التفاسير التي اعتمد أصحابها في التفسير على صحيح المنقول من تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة لأنها مبنية لكتاب الله تعالى، أو بما قاله كبار الصحابة والتابعين لأنهم تلقوا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا المنحى يحرص على الإتيان بالآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفة ما لم يرد فيه نقل صحيح، وقد اتفق ابن كثير أن الإمام محمد بن جرير الطبري في "تفسيره" حيث أورد فيه الأحاديث والآثار بالأسانيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام والتابعين، وقدّم لتفسيره بمقدمة طويلة هامة أبان فيها عن رأيه في شؤون

(*) وقد ألفت في كتابة هذا الفصل مما جاء في مقدمة ابن كثير لتفسيره فيما يتصل ببيان منهجه، وما كتبه عنه العام الفضل الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه النافع "التفسير والمفسرون" وما كتبه من سبغي إلى الكتابة عن هذا التفسير القيم، كوالدي وأستاذي المحدث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط حفظه الله وبارك في حياته، والصديق العزيز الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، والأستاذ طه عبد الرزاق سعد، نفع الله تعالى بهم، ومن مصادر أخرى كثيرة تحدث أصحابها عن هذا التفسير الجليل القدر باختصار في مصنفاتهم التي ترجموا فيها لمؤلفه، رحمه الله تعالى وأحسن إليهم، وحزاهم عما رعن المسلمين غير الجزاء، مع شيء من النصف والاختصار أثناء نقلنا عنها جميعاً.

وابن كثير يرجح في تفسيره بعض الأقوال على بعض، ويضعف بعض الروايات ويصحح بعضها الآخر، ويساعد على ذلك خبرته بعلوم الحديث ومصطلحه، وينقل عن التفسير الأخرى التي تقدمته، كتفسير الطبري، وتفسير أبي حاتم، وتفسير ابن عطية، وغير ذلك من التفسير الأخرى.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (67) وما بعدها من سورة البقرة (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة...) إلى آخر القصة، نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة، وعن وجودهم لها عند رجل من بني إسرائيل كان من أبرّ الناس بأبيه.. الخ، ويروي كل ما قيل في ذلك عن بعض علماء السلف.. ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه: "وهذه السياقات عن عبدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدّق ولا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليه إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

^(١١) سورة انفطار: الآية (44).

¹⁹ رواه أبو داود رقم (4604)، في النسبة: باب في لزوم النسب، وأحمد في "المسند" (131)، وذكره الخطيب الشيرازي في "مشكاة الأنصاب" (571)، من حديث المتقدم بن معدي كرب، وصحَّح الألباني إسناده فيما علقه عليه.

علمائهم عنهم في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" (6) فيما قد يجوزُه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

كما يلاحظ على ابن كثير أنه يدخل في المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئت أن ترى مثلاً لذلك فارجع إليه عند قوله تعالى في الآية (185) من سورة البقرة: (..) فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعذّة من أيامٍ أخر .. فإنه يذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، ويذكر أقوال العلماء فيها، وأدلتهم على ما ذهبوا إليها.

وهكذا يدخل ابن كثير في خلاطات الفقهاء، ويخوض في مذاهبهم وأدلتهم كلما تكلم عن آية لها تعلق بالأحكام، ولكنه مع هذا مقتصد مقل لا يسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين.

وبالجملة، فإن "تفسير ابن كثير" من خير ما كتب في التفسير المأثور، وقد شهد له بعض العلماء بالخيرية، فقال السيوطي في "ذيل تذكرة الحفاظ" والزرقاتي في "شرح المواهب اللدنية" إنه لم يؤلف على نمطه مثله.

ويمكن تلخيص مميزات تفسير ابن كثير في النقاط التالية:

أ- الاعتماد على النصوص في التفسير.

ب- يبدأ في تفسير الآية بذكر المعنى العام لها ثم يذكر الآراء في ذلك.

ج- يذكر أسباب النزول حين يبين الأحكام المستنبطة من الآيات لأن معرفة السبب سبيل إلى معرفة المسبب.

د- ذكره للأحاديث وبيان روايتها ومن خرّجها من أصحاب المصادر في مصنفاتهم.

هـ- إيراده للآراء والرد عليها، فابن كثير يورد الآراء في تفسير الآيات ويرجح أو يرد عليها.

و- ذكره للناسخ والمنسوخ لما لهذا الأمر من تبين الحكم ومعرفة ما آل إليه، والعلم بهذا أمر ضروري لكل من يتصدى لكتاب الله تعالى في استنباطه معانيه وإيضاح أحكامه.

ز- تحذيره من أهل الكتاب والروايات الإسرائيلية.

ومع ذلك كله مما أشرنا إليه من حسنات هذا "التفسير" العظيم الشأن فإنه لم يسلم من بعض الانتقاد فيما يتصل بإيراده بعض الإسرائيليات، يضاف إلى ذلك عدم تحريره الاستيعاب لما نقل في

(6) قطعة من حديث رواه البخاري (361 | 6) في الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل، والمؤمدي رقم (2671) في العلم: باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وعنه: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ عقابه من النار".

تفسير بعض الآيات من كلام أهل اللغة، والكمال لله وحده.

مختصرات التفسير وملخصاته:

ونظراً لشهرة "تفسير ابن كثير" بين جماهير المسلمين واستحسانهم لمنهج مؤلفه بالإجمال، فقد اتجهت جهود عدد من العلماء في العصر الحديث نحو تلخيصه واختصاره.

1- وأول تلك الاختصارات هو "عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير" للعلامة المحدث المحقق للشيخ أحمد محمد شاكر المصري، المتوفى سنة (1377هـ = 1957م) ولكنه لم يكمل عمله في اختصاره ووصل فيه إلى قوله تعالى: (لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطُلَ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)⁽⁷⁾ وهو ما يعدل ربع التفسير تقريباً، ولو أنه تممه لكان أحسن مختصراته دون شك وريب، ومع ذلك فهو عظيم النفع والفائدة على حاله التي تركه عليها، ونسأل الله تعالى أن يلهم أحد شيوخ العلم في هذا العصر إلى إتمام ما بدأ به العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر في اختصاره له وعلى منهجه.

2- وثاني تلك المختصرات أهمية مختصر الأستاذ الشيخ محمد نسيب الرفاعي الحلبي المتوفى سنة (1413هـ = 1992م) والمسمى "تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير" وتأتي أهميته من حرص مختصره على الإتيان بما هو صحيح من الروايات والأحاديث والآثار مما أورده ابن كثير "تفسيره" قدر الإمكان، يضاف إلى ذلك صفاء الرجل وبعده عن الشطط والمبالغة إلى حد بعيد، ويقع مختصره في أربع مجلدات.

3- وثالث تلك المختصرات أهمية مختصر الأستاذ محمد علي الصابوني ويقع في ثلاث مجلدات والمسمى "مختصر تفسير ابن كثير" وهو مختصر جيد لولا ما انتقد عليه من إيراد الكثير من الروايات الضعيفة.

طباعات تفسير ابن كثير:

لقد طبع "تفسير ابن كثير" طباعات عديدة في مصر ولبنان والسعودية، وكل طبعة من تلك الطباعات تمتاز عن غيرها بمزايا مختلفة، وبعضها أحسن من بعض بنسب مختلفة تتبع قيمة الجهود المبذولة فيها وحرص الناشر على إخراجها الإخراج الذي يليق بمثل هذا الكتاب العظيم.



⁽⁷⁾ سورة الأنفال: الآية (8).

فهرس البحوث والدراسات / مجلة التراث العربي /

العدد	الصفحة	الكاتب	عنوان البحث
			"حرف الألف"
75	109	محمد أمين أبو جوهر	1- ابراهيم النظام
74	9	نصر الدين البهرة	2- ابن رشد
74	48	د. نايف بلوز	3- ابن رشد بين الأيديولوجيا والعقلانية
74	145	ميكال فوركاذا	4- ابن رشد في السياق العلمي الأندلسي
74	121	د. عمار عامر	5- ابن رشد في كتابه المفقود عربياً (شرح جمهورية أفلاطون)
74	176	محمود الأرناؤوط	6- أخبار التراث العربي
75	122	محمود الأرناؤوط	7- أخبار التراث العربي
76	160	محمود الأرناؤوط	8- أخبار التراث العربي
77	156	محمود الأرناؤوط	9- أخبار التراث العربي
75	69	أحمد الحسين	10- أدب الفئات الهامشية في العصر العباسي
76	80	د. وحيد كباية	11- أصول صناعة الشعر عند المعري
77	127	د. نشأت حمارة	12- أقدم المعجمات الطبية العربية
76	60	د. حسين جمعة	13- أنا سكان السفينة (نظرية الشعر في النقد العربي القديم)
76	116	أحمد سعيد هواش	14- الإعاشة والطب في التراث العربي الحربي

العدد	الصفحة	الكاتب	عنوان البحث
			"حرف الباء"
77	68	محمود فاخوري	15- بين الصحاح والقاموس المحيط
			"حرف التاء"
77	77	د. محمد علي الزركان	16- تداخل المصطلحات العلمية (بين المحدثين واللغويين والفقهاء)
76	129	د. نجمان ياسين	17- التفكير الاجتماعي والاقتصادي عند المقرئ
74	159	د. عبد الله أبو راشد	18- تلخيص السياسة لابن رشد
			"حرف الحاء"
74	91	د. حسين حرب	19- حدود العقل الرشدي
76	150	نافذ سويد	2- الحرفيون ودورهم التاريخي
75	63	د. محمد فائز وفاني	21- الحضارة العربية في الأندلس (التي أبدعت في ظل الإسلام)
74	155	د. أرغولبول	22- حوار الثقافات على خطا ابن رشد
74	7	نصر الدين البهرة	23- حول ندوة ابن رشد في دمشق
			"حرف الدال"
74	164	د. جعفر دك الباب	24- دعوة إلى فلسفة رشدية عربية معاصرة
			"حرف السين"
74	104	هاني مندى	25- السببية عند ابن رشد
			"حرف الشين"
75	23	د. أحمد عبد القادر صلاحية	26- الشعر الأندلسي في تواريخ الأدب العربي

عنوان البحث	الكاتب	الصفحة	العدد
"حرف الميم"			
40- المأمون وراء محنة ابن حنبل	محمد منذر لطفي	123	76
41- مدخل تاريخي إلى عالم ابن رشد	د. محمد محفل	17	74
42- معاجم الأبنية	د. مسعود بوبو	53	77
43- المعاجم الطبية العربية	د. محمد زهير البابا	109	77
44- المعجزات العلمية في القرآن الكريم	عبد الوهاب مدور	27	76
45- معجم عين الفعل	نصر الدين البهرة	7	77
46- المعجمات العربية أطوار التأليف فيها	د. عبد الحفيظ السطلي	15	77
47- المعجمة في الشرق العربي القديم	د. عدنان البني	97	77
47- المعجم المجهول والفصاح المظلومات	هشام نحاس	83	77
49- مفهوم السلطة في فلسفة ابن رشد	د. يوسف سلامة	78	74
50- مفهوم النفس عند أبي حيان التوحيدي	ماجدة محناية	138	76
51- المقدمة الطللية بين الاستجابة النفسية والتقليد الفني	د. بوجمعة بوبعير	53	76
52- الموروثات المشرقية في العصر الأندلسي	الياس تيرس سادابا ت:/ عدنان آل طعمة	17	75
"حرف النون"			
53- النزعة العقلية عند ابن رشد	د. حامد خليل	38	74
54- نظرة حديثة لفهم تاريخ الطب العربي	د. نشأت حمارنة	93	76
"حرف الواو"			
55- وسائل الإنعاش وقصص لأموات عادوا للحياة في التراث الطبي العربي	د. محمود الحاج قاسم محمد	81	75

فهرس الكتاب السنة التاسعة عشرة 1998-1999 من مجلة التراث العربي

العدد	الصفحة	اسم الكاتب وعنوان بحثه
		(حرف الألف)
75	109	أبو جهر، محمد أمين * إبراهيم النظم
74	159	أبو راشد، د. عبد الله * تلخيص السياسة لابن رشد
74	155	د. أرغولبول * حوار الثقافات على خطا ابن رشد
74	181	الأرناؤوط، محمود * أخبار التراث العربي
75	122	* أخبار التراث العربي
76	160	* أخبار التراث العربي
77	156	* أخبار التراث العربي
75	17	آل طعمة، د. عدنان * المورثات المشرقية في العصر الأندلسي / ترجمة/
		(حرف الباء)
77	109	البابا، د. محمود زهير * المعاجم الطبية العربية
74	9	البحرة، نصر الدين * ابن رشد
74	7	* حول ندوة ابن رشد في دمشق

العدد	الصفحة	اسم الكاتب وعنوان بحثه
75	69	الحسين، أحمد * أدب الفئات الهامشية في العصر العباسي
77	127	حمارنة، د.نشأت * أقدم المعجمات الطبية العربية
76	93	* نظرية حديثة لفهم تاريخ الطب العربي
74	134	الحموي، حسين * الفلسفة الرشدية بين اجتهد العقل وارتداد القلب
75	101	حنا، عبد الله * كتاب القضاء والنواب لشكري العسلي
		(حرف الخاء)
74	66	خضرة، د.محمود * عصر ابن رشد ومشروعية التأويل
74	38	خليل، د.حامد * النزعة العقلية عند ابن رشد
		(حرف الدال)
74	164	دك الباب، د.جعفر * دعوة إلى فلسفة رشدية عربية معاصرة
77	30	* في نظام المعجم العربي
		(حرف الذال)
75	52	الذنون، عبد الحكيم * قصر الحمراء في غرناطة
		(حرف الزاي)
77	77	الزركان، د.محمد علي * تداخل المصطلحات العلمية بين المحدثين والفقهاء واللغويين

العدد	الصفحة	اسم الكاتب وعنوان بحثه
		(حرف السين)
75	17	سادابا، الياس تيرس *المورثات المشرقية في العصر الأندلسي /تأليف/
77	15	السطلي، د.عبد الحفيظ *المعجمات العربية وأطوار التأليف فيها
74	78	سلامة، د.يوسف *مفهوم السلطة في فلسفة ابن رشد
76	150	سويد، نافذ *الحرفيون ودورهم التاريخي
75	91	*صناعة الأسلحة في العصر الإسلامي
		(حرف الصاد)
75	23	صلاحية، د.أحمد عبد القادر *الشعر الأندلسي في تواريخ الأدب العربي
		(حرف العين)
74	121	عامر، د.عمار *ابن رشد في كتابه المفقود عربيا /شرح جمهورية أفلاطون/
		(حرف الفاء)
77	68	فاخوري، محمود *بين الصحاح والقاموس المحيط
74	145	فوركادا، ميكال *ابن رشد في السياق العلمي الأندلسي
		(حرف الكاف)
76	80	كبابة، د.وحيد *أصول صناعة الشعر عند المعري

العدد	الصفحة	اسم الكاتب وعنوان بحثه
76	40	الكردى، سعد محمد * اللغات الأخرى في القرآن الكريم وموقف الطبري منها
		(حرف اللام)
76	123	لطفي، محمد منذر * للمأمون وراء محنة ابن حنبل
		(حرف الميم)
74	17	محفل، د. محمد * مدخل تاريخي إلى عالم ابن رشد
75	38	محمد، د. محسن اسماعيل * الصورة الشعرية عند يحيى الغزال الأنلسي
76	138	محنائية، ماجدة * مفهوم النفس عند أبي حيان التوحيدي
76	27	مدور، عبد الوهاب * المعجزات العلمية في القرآن الكريم
74	104	مندس، هاني * السببية عند ابن رشد
77	47	موسى باشا، د. عمر * لسان العرب المعجم اللغوي العربي الكبير في التراث العربي
		(حرف النون)
77	83	نحاس، هشام * المعجم المجهول والفصاح المظلومات
		(حرف الهاء)
76	116	هوامش، أحمد سعيد * الإعاشة والطب في التراث العربي

العدد	الصفحة	اسم الكاتب وعنوان بحثه
		(حرف الواو)
75	63	وفائي، د. محمد ظافر * الحضارة العربية في الأندلس
		(حرف الياء)
76	129	ياسين، د. نجمان * التفكير الاجتماعي والاقتصادي عند المقرئ

□□□



اتحاد الكتاب العرب

ARAB WRITERS UNION

DAMASCUS دمشق